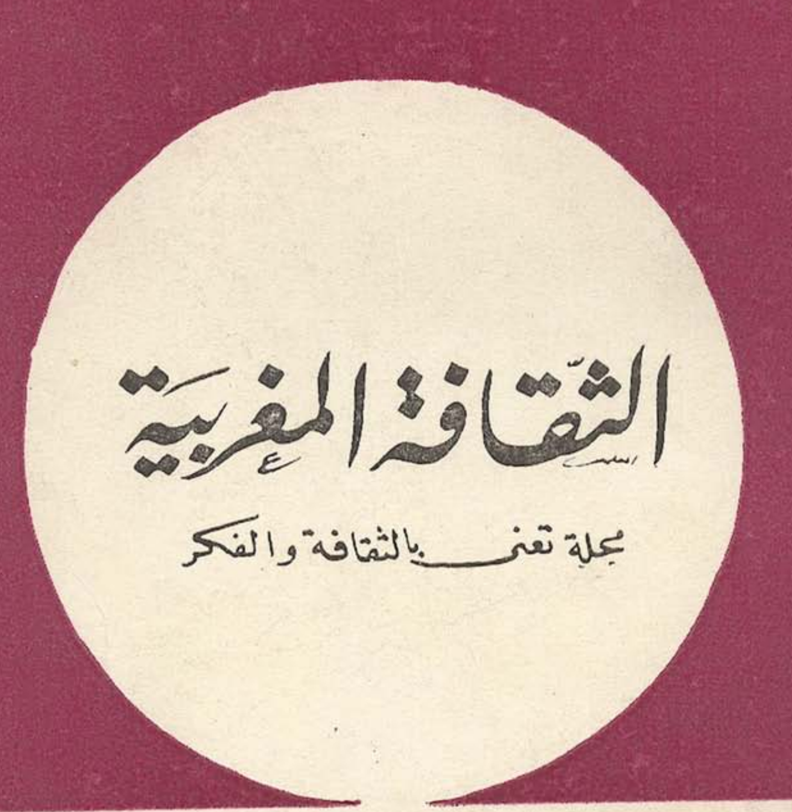
المملكة المغربية



الثقافة المغربية

مجلة تعنى بالثقافة والفكر

تصدرها
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة
المديرية العامة للثقافة

8

1973 1393

الثقافة المغربية

مجلة فكر وثقافة

تصدرها :

وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

(مديرية الشؤون الثقافية)

زنقة غاندى ـ الرباط

(المغرب)

تليفون : 91ـ318 / 93ـ318

ثمن النسخة : ثلاثة دراهم

الجزء الثامن 1973

الفهـــرس

افتتاحيــة

شخصيــات مغربيــة :

افتتــــاحية

لماذا ثقافة مغربيـــــة ؟

حملت هـذه المجلـة منـذ صدورهـا عنـوان « الثقافة المغربية » التى أحب الجميع منـذ البدايـة أن تكون انعكاسا لأصالة الثقافة المغربية الشاملة لأقطار المغرب العربى وحـتى الثقافة الاندلسية التى لاتزال جوانب كثيرة منها بحاجة الى دراسة وافية مركزة .

لماذا هذا التمسك باطار جغـرافى فى ميدان لا يعرف حدودا ولا أقطارا وهو ميدان الفكر والثقافة ؟ انه فى الواقع مجرد اصطلاح بين المجلة وقرائها على أن ما يكتب لهم هـو مرآة حقيقية لمجموع الثقافة الانسانية التى يساهم فيها المغربى بالنصيب الاوفى والاوفر .

وليس من رأينا ان تكون هذه المجلة مجرد ملف أبحاث رصينة يكتب فيها رجالات ممن عركتهم التجربة وبلغوا من أفـق المعرفة درجـة تدخلهم فى عداد الباحثين ، فليس فى المغرب الصغير ولا الكبير بحاثون فقط ، وليس فى الثقافة تراث ينقب ويصان فحسب بل فيها خلق وفيها فكر شاب

ينظر الى الاشياء نظرة جديدة فيها حيوية ونقد لما يعرف وما قد لا يعرف ، وربما فى هذا الفكر غضب على الرصانة وان شئت فقل الاصالة ، ولكن شابا من المغرب يكتب بهذه الروح يبقى مغربيا اذا كتب وأنتج حتى ولو سما انتاجه وحلق فى الآفاق الانسانية ، ويجب فى كل حال العمل على اقناعه اذا هفا أو أخطأ بالحجة الهادفة والنظرة الشمولية .

فلم اذا يبقى هذا الحجاب مسدولا بين جيلين اختلفت ثقافتهما وطريقة معالجتهما لميادين الفكر ؟ ولم اذا نغمط الشباب والادباء والفنانين حقهم فى أن يعرضوا فى هذه المجلة فكرا نظيفا أو أدبا شيقا أو فنا خلاقا ؟

لذلك ندعو هنا كل الاقلام الشابة أن تكتب وتعرض انتاجها مشكورا مشجعا الى جانب رجالات البحث والرصانة حتى يلتقى الطرفان حيث يجب أن يلتقيا ، فلا أشرف من علم ضم الصفوف على هدى وبينة ، ولا أفيد من فكر جمع بين الاصالة والابداع ، وخطتنا أن نلتزم الأدب فى هذه الديار .

وانا على الجادة لسائرون وللضلال لمتنكبون .

شخصيات مغربية

يوسف بن تاشفين

(ترجمة نقدية)

بقلم : عبد الله كنون

مولده ونشأته :

هو ابو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ملك الملثمين المعروفين بالمرابطين ، ومخطط مدينة مراكش ، وبطل معركة الزلاقة ، وواضع الحجر الاساسى فى وحدة المغرب الكبير ، وأول من تلقب بامير المسلمين من ملوك الاسلام كافة .

ولد على رأس المائة الرابعة ، ولا نعلم عن نشأته شيئا ، الا انه من غير شك كان ممن لازم عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين ، والمؤسس الاول لدولتهم ، وربما كان ممن دخل رباطه ، وتلقى تعليمه عنه ، وهذا الرباط كان فرعا من مدرسة وجاج بن زلو أو رباطه الكبير الذى تخرج منه عبد الله بن ياسين والصلة بين وجاج وبين الامام ابى عمران الفاسى معروفة ، والدعوة الاصلاحية التى قام بها هذا الامام وتلقاها عنه تلميذه وجاج ونشرها بقطر سوس ثم تلقاها عبد الله بن ياسين عن وجاج وبثها فى اقليم الصحراء ، هى التى كان لها الفضل فى قيام دولة المرابطين وتكوين القادة المصلحين من رجال لمتونة وقبائل صنهاجة على العموم ، امثال يحيى بن عمر وأخيه ابى بكر وابن عمهما يوسف المترجم له .

واذا صح هذا التقدير ، وهو صحيح حتما ، لاننا لم نر عبد الله

بن ياسين يقدم للولاية الا خاصة الخاصة من مريديه ، وكذلك كان القوم بعده ، نقول اذا صح هـذا التقدير ، فيكون يوسف قد صحب عبد الله اكثر من عشرين سنة قبل ولايته ، وهى مدة كافية لتجعل منه رجلا صالحا للحكـم ، مستجمعـا لشروط القيادة ، كفؤا من الوجهتين النظرية والعلمية للمهمة العظمى التى اسندت اليه وقام بها خير قيام .

على انه منذ دخول عبد الله بن ياسين لبلاد صنهاجة ، كان فى نحو الثلاثين من عمره ، فلاشك انه قبل ذلك تلقى تعليما عامـا ، وتدرب خاصة على الفروسية واعمال الحرب مما جعل منه بطلا نجدا شجاعا حازما كما يصفه المؤرخون .

تكـوينـه

وعليه نستطيع ان نجزم بأنـه سواء فى شبيبته أو كهولته تكون تكوينا صحيحا (اولا) فى المجال الدينى وما تجب عليه معرفته من احكام الشريعة وطرق الدعوة والاصلاح . وثانيا ـ فى تدبير الحروب والقيادة العسكرية . وثالثا ـ فى نظام الحكم وسياسة الدولة . وهى الامور التى برهن فيها على مقدرته الكاملة وكفايته التامة ، حتى اننا نعده من النماذج النادرة لملوك الاسلام الذين كانـوا دائما فى خدمة دولته ، فعملوا على اعلاء كلمته وتطبيق شريعته ووحدة أمته ، ولم يتخذوا الدولة مطية لبلوغ اغراضهم وقضاء شهواتهم .

وأول ما نلتقى به فى ميدان العمل على عهد عبد الله بن ياسين ، سنة 448 حين ولى ابو بكر بن عمرالامارة وندب عبد الله المرابطين الى غـزو المصامدة وبلاد السوس ، فجعـل الامير ابوبكر على مقدمة الجيش ابن عمه يوسف ابن تاشفين ، كما يقول ابن ابى زرع ، واصبح بذلك القائد الاول لجيش المرابطين ، الذى اخضع القطر السوسى ، وقاتل فى مدينة تارودانت قوما من الروافض كانوا قد استوطنوها منذ قدوم عبيد الله

الشيعي الى افريقية ، كما نازل أغمات واستخلصها من يد المغراويين الذين كانوا يسيطرون على المغرب . ثم ارتحل الى تادلا وكانت خاضعة لبني يفرن ابناء عم المغراويين ، ، فأجلاهم عنها ، وسار الى بلاد تامستا المعروفة بالشاوية وقاتل فيها قبائل برغواطة الضالة ، وهم الذين قاتلهم المولى ادريس من قبل ، ولكن شوكتهم لم تنكسر ، وقد كان قتال المرابطين لهم شديدا وطويل المدة مات اثناءه عبد الله بن ياسين، ولكنهم تنفيذا لوصيته لم يقلعوا عنهم حتى استأصلوهم وقضوا على نحلتهم الخبيثة .

ففي هذه المعارك كلها كان يوسف على رأس الجيش ، يبلي البلاء الحسن ويقف الى جنب عبد الله بن ياسين وابي بكر بن محمد ، فيكون الشخصية الثالثة من قادة الدولة الناشئة .

استخلافه على المغرب من قبل الامير ابي بكر

وبعد الانتهاء من حرب برغواطة، رجع الامير الى اغمات ، حيث استراح قليلا ، ثم خرج في حرب تصفوية لما بقي من مملكة المغراويين واليفرنيين بالمغرب ، وذلك في صفر 452 ، ومما لا ريب فيه أن يوسف كان معه في هذه الحرب ، لانه بعد وفاة عبد الله اصبح الرجل الثاني في الدولة ، فهو الوزير والمشير والقائد الذي لا غنى عنه . ولم تطل مدة هذه الحملة الا ثلاثة اشهر ، اذ اضطر ابوبكر للعودة الى اغمات ، لما بلغه من اختلال الصحراء ونشوب الخلاف بين قبائل صنهاجة ، فعزم على السير اليها ليصلح أحوالها ، ويستأنف حركة الجهاد في أقطار السودان . ولكن كان عليه أن يضبط الامر في المغرب ، ولايترك مكاسب الدولة فيه للضياع ، لانه يعلم أن الوجهة التي يقصدها سحيقة وانه ربما لايعود منها ، وفي احسن الاحوال يطول غيابه ، فتنتقض عليه البلاد التي فتحها ويسترجع خصومه ما انتزعه منهم .

وهكذا اخذ الامير ابو بكر فى تدبير سفره البعيد ، فاستخلف على المغرب ابن عمه يوسف ، وامره بالرجوع الى استصفاء ملك زناتة من مغراوة وبنى يفرن . وكان له زوجة تدعى زينب بنت اسحاق الهوارى ، رجل من التجار أصله من القيروان ، وهى ذات حسن وجمال وعقل وتدبير فمن ورعه وشهامته انه لم يشأ أن يتركها معلقة ولا ان يأخذها معه الى الصحراء لعدم استطاعتها العيش هناك ، فطلقها وقال لها انى ذاهب الى الصحراء وأريد الجهاد بالسودان ولعلى ارزق الشهادة ، فلا احملك ما لا تطيقين ، فنعمت عينا بذلك ، وقيل انها هى التى طلبت منه طلاقها فأسعفها . ويقال انه أوعز لابن عمه يوسف بتزوجها وقال له انها امرأة عاقلة .

استقلاله بالحكم

وارتحل ابوبكر قاصدا الصحراء فى ذى القعدة 453 ، وقبض يوسف على زمام الامور بالمغرب ، وقد وافق على خلافته اشياخ المرابطين يقول ابن ابى زرع : لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته . تزوج زينب بنت اسحاق ، فأعانته برأيها وحصافتها وحسن تدبيرها . ومن ذلك أنه لما ظهر أمره وغلب على اكثر بلاد المغرب ، وسمع ابن عمه ومستخلفه الامير ابوبكر بضخامة ملكه اقبل اليه من الصحراء ليتسلم الامر من يده ، فشاور يوسف زوجته زينب فى ذلك فقالت له : ان ابن عمك رجل متورع فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الادب والتواضع ، وأظهر له انك مساو له ومماثل ، ولاطفه مع ذلك بالاموال والهدايا ، فانه يسلم لك ، فلما قرب الامير ابوبكر من عمل يوسف خرج هذا اليه فتلقاه فى الطريق وسلم عليه وهو راكب ، ولم ينزل له ، فنظر الامير كثرة جيوشه فقال له يا يوسف ما تفعل بهذه الجيوش كلها ؟ قال : استعين بها

على من خالفنى . ثم نظر الى عـــدد كبير من الابل موقورة قد اقبلت . فقال ما هذه الابل ؟ قال ايها الامير: جئتك بكل ما معى من مال وثياب وطعام لتستعين به على عيش الصحراء فعلم ابوبكر أن يوسف قد استبد بالامر دونه ، وأنه لن يتخلى له عن ولايتـــه ، فـــرضى بـــما قدم له ، واستوصاه خيرا بالرعية وانصرف الى الصحراء من جديد فأقام بها على جهاد السودان الى أن استشهد فى سنة 480 بعد ن استولى على نحـــو تسعين مرحلة من بلادهم ، وأمـــا يوسف فانه كان خرج مع ابن عمه أبى بكر الى سجلماسة لتوديعه ، حين استخلافه له على المغرب وبعد ذلك فصل عنها الى وادى ملوية ، حيث ميز جيوشه فوجدهم أربعين ألفا ، فاختار منهم أربعة قواد ، وعقد لكل واحد منهم على خمســة ءالاف ، وقدمهم بين يديه الى قتال من بالمغرب من مغراوة وبنى يفرن وغيرهم من قبائل البربر القائمين به ، وسار هو ببقية الجيش فـــى اثرهم ، ففتـــح الله عليـــه ودانـــت القبائل بالطاعة واستوثق أمـــره وكثرت جموعه ، وذاع صيتهوتعلقت به الآمال ، ولاسيما بعد تسليم أبى بكر له واستقلاله عنه .

بناؤه لعاصمة مراكش

وشعر بالحاجة الى بناء قاعـــدة تكون اساس ملكه ومنطلق تحركاته في الوسط ما بين الجنوب والشمال فاهتدى الى مكان مدينـــة مراكش فنزله سنة 454 بخيامه وثقله ، واختط فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان الاموال والسلاح ، وكان لما شرع فى بناء المسجد يحتزم ويعمل فى الطين والبناء بيده مـع الخدمة تواضعا منه وتقربا الى الله عز وجل . وقيل أن اختطاط مدينة مراكش كان فى زمن الامير ابى بكر بن عمر لما ضاقت اغمات بجنده ، وأن اختيار مكانها كان على أساس رحب الساحـة وخصـب الناحيـة والتحكم في بلاد المصامدة الذين هم

من أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعا . ولكن الصحيح أن يوسف هو الذى نفذ الفكرة وان قلنا بسبق الاهتمام بها ، وعلى كل فان مراكش لم تستكمل وجودها كعاصمة الا فى زمن على بن يوسف وملوك الموحدين ولاسيما يعقوب المنصور منهم .

بسط نفوذه على شمال المغرب وشرقه الى الجزائر

وجند يوسف الاجناد ، واستكثر من القواد ، واتخذ الطبول والبنود ، وبعث العمال والعهود ، وبلغ جيشه ازيد من مائة الف كما يقول صاحب القرطاس ، فخرج من مراكش قاصدا مدينة فاس ، فحاربه أهلها والقبائل المحيطة بها ، ولكنه تغلب عليهم ، وقاتل ولاة مغراوة وبنى يفرن عليها وعلى مدينة صفرو وبلاد الشمال ، وفرق الغارات على المعاقل والمدن ، وقصد بلاد غمارة بنفسه ، وتوغل فيها ، فلما شعر الزناتيون بخفة وطأته عليهم عاودوا الكرة على فاس فتملكوها ، وبعث يوسف اليها بجيش من المرابطين فلم يغن شيئا ، فاضطر الى العودة لقتال القائمين عليه وتدويخ القبائل التى فى طريقه حتى بلغ فاسا فنازلها وعاد فتحها من جديد . وكانت مدينتا طنجة وسبتة خاضعتين لسكوت البرغواطى من بقايا البرغواطيين الذين قاتلهم عبد الله بن ياسين ، فوجه يوسف اليهما احد قواده ففتح طنجة وقتل اميرها المذكور وبقيت سبتة فى يد ولد هذا الامير ، وتوالت فتوح قواده الذين وجههم الى بلاد المغرب شمالا وشرقا ، ومنها تلمسان ، ومدينة وجدة التى توجه اليها بنفسه وبلغ نفوذه الى وهران وجبال ونشريس واعمال شلف بأجمعها الى مدينة الجزائر .

وكان لما اعاد فتح مدينة فاس كانت بها فاصلة بين عدوتى القرويين والاندلس وردها مصرا واحدا ، وعمرها وبنى بها الحمامات والفنادق والارحاء ، وأصلح أسواقها

وهذب بناءها ، وأمر ببناء المساجد في جميع احيائها وشوارعها ، وأى زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب اهله، وجبرهم على بناء مسجد فيه ذكــر ذلك ابن ابى زرع ، وبهذا وباعادة بناء جامع القرويين والزيادة فيه حتى صار على ما هو عليه الان ، فى أيام ولده على بن يوسف يعتبــر المرابطون من معمرى مدينة فــاس والممكنين للصبغة الدينية التى لها ، بالاضافة الى بنائهم لمدينة مراكش .

توحيده للمغرب وتسميه بأمير المسلمين

وقد استغرق يوسف فى زحفه هذا على المغرب وتوحيده لاطرافــه تحت حكمه زهاء عشرين سنة ، منذ خرج من مراكش 454 الى سنة 474 وكان فى أثناء ذلك يسدد ويقارب ويصلح ما افسدته الفتنة وجــور الولاة السابقين ويقعد قواعد الدولة ويختار الرجال لاعماله . وقد قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه ، وضرب السكة فى اسمه ، وتسمى بأمير المسلمين ، بعد أن أراد أشياخ القبائل من صنهاجة وكبار رجال دولته ان يدعوه امير المومنين فأبى تواضعا وقال انما تسمى بهذا الاسم الخلفاء ، فقالوا لابد من اسم تمتاز به ، وكان انما يدعى بالامير فقال لهم يكون امير المسلمين ، فاتفقوا على ذلك وكتب به الى الاقاليم

وقيل انما سمى بذلك بعد وقعة الزلاقة لما وقع الفتح واجتمع لديــه ملوك الطوائـف يهنئونه بالنصــر فخاطبوه بأمير المسلمين ، وعــلى كل حال ، فهو اول من لقب بذلك من ملوك الاسلام .

تدهور الوضع فى الاندلس واستصراخ المعتمد به

وفى سنة 475 ورد عليه وهــو بمراكش ، كتاب المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، يعلمه بحـــال الاندلس وما ءال اليه أمرها مــن تغلب العدو على أكث رثغورها وبلادها

ويسأله النصر والاعانة . فأجابه يوسف فان ذلك يكون بعد فتح سبتة ان شاء الله .. وكانت سبتة ماتزال بيد ضياء الدولة ابن سكوت البرغواطى ، فعرض عليه المعتمد مساعدته فى فتحها ، فنازلها المرابطون برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا ، فسقطت للحال فى يد المرابطين . وشاور يوسف مشيخة لمتونة ورجال المغرب فى شأن اصراخ ابن عباد فقالوا له انه من الواجب على كل مسلم اغاثة أخيه المسلم ولا يحل لنا أن يكون هذا الرجل جارنا وليس بيننا وبينه الا ساقية ماء ، ونتركه طعمة للعدو ، فعزم يوسف حينئذ على نصرة الاندلسيين .

وأجاز ابن عباد البحر الى يوسف، فلقيه فى فاس ، وألح عليه فى الجواز الى الاندلس لقتال العدو ، وتوالت عليه رسل أهل الأندلس وكتبهم يستصرخونه فى تنفيس قبضة العدو عن مختنقهم فطلب يوسف من ابن عباد ان يمكنه من الجزيرة الخضراء ليتخذها رباطا لجيشه .

وكان الوضع فى الاندلس يزداد سوءا يوما بعد يوم .. فقد بدأ الاسبان حملة اكتساح قوته لبلاد المسلمين او ما يسمى بحرب الاسترداد (RECONKISTA) واستخفوا كثيرا بملوك الطوائف الذين ورثوا خلافة قرطبة لما رأوا تنازعهم وقلة غنائهم فى الدفاع عن حوزتهم ، حتى انهم رضوا بدفع الاتاوة للعدو لقاء كفه عن قتالهم وقام الفونس السادس ملك قشتالة فى نفس السنة التى وصل فيها المعتمد الى المغرب للاستنجاد بيوسف ، بجولة عبر أراضى ملوك الطوائف فى جيش كثيف . فشق بلاد الاندلس شقا ، يقف على كل مدينة ويفسد ويخرب فى انحائها ويقتل ويسبى ، ثم يرتحل الى غيرها ، حتى وصل الى جزيرة طريف ، فادخل قوائم فرسه فى البحر ، وقال ان هذا آخر بلاد

الاندلس وطاته .. وهو يحكي ولاشك ما كان فعله عقبة بن نافع حين انتهى من فتح المغرب فأقحم فرسه في البحر وقال « اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل في سبيلك ، حتى لا يعبد أحد سواك »

سقوط طليطلة في يد الاسبان وجواز يوسف الى الاندلس

وفي هذه الاثناء سقطت مدينة طليطلة في يد الفونس المذكور فكان ذلك انذارا بمصير بقية العواصم الاندلسية ، ومصير المسلمين في شبه الجزيرة ، وعظمت الفجيعة بسقوطها بين ملوك الطوائف انفسهم فأحرى بين الشعب الاندلسي المنكوب لذلك اصفقت كلمة الجميع على استصراخ عاهل المغرب ، والاحتماء بجيش المرابطين العتيد .

واقام يوسف بمدينة فاس ينظر في امر الجهاد ، ويستنفر له قبائل المغرب ، ثم رحل الى سبتة ، فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ، ولحقت به العساكر والجنود ، فشرع في تجويز الجيوش الى الاندلس ، فلما استوفى جوازها وجواز المجاهدين ، واستقر الجميع بساحل الجزيرة الخضراء ، جاز هو على اثرهم في جيش عظيم من قبائل المرابطين وأنجادهم وصلحائهم ، وكان ذلك زوال يوم الخميس 15 ربيع الاول سنة 479 وكان جوازه بأسرع ما يكون ، فنزل بأرض الجزيرة الخضراء وصلى بها الظهر ، وتلقاه المعتمد وغيره من ملوك الاندلس وأمرائها ، فاتصل خبره بالفونس وكان محاصرا لمدينة سرقسطة ، فارتحل عنها ، وشرع في اتخاذ الاهبة للقاء العاهل المغربي .

وفيما توجه هذا الاخير الى اشبيلية ، أخذ الفونس يجمع حشوده ووضع يده في يد ملك أراغون والكونت برنجير رايموند ، وكان الاول محاصرا لمدينة طرطوشة ،

والثانى يتأهب لغزو بلنسية ، فكفا كلاهما عما كانا بصدده وانضما الى صف الفونس ، كما انضمت اليه قوات اخرى جاءت من جنوب فرنسا ومن ايطاليا وغيرها ، وتأهب الفريقان للقاء ، وكان المعتمد على جيش الاندلس ، الذى يضم جميع ملوك الطوائف ، وابن تاشفين على جيش المغرب ، الذى يقوده ابطال انجاد مثل داود بن عائشة وسير بن ابى بكر وغيرهما ..

وتقدم جيش الاندلس يتبعه جيش المغرب ، فكان كلما قام ذاك من موضع نزله هذا حتى حلا معا بالغرب من مدينة بطليوس فى بسيط فسيح بالزلاقة ، وبدون أن ندخل فى تفاصيل مقدمة المعركة ، نذكر أن الفونس تقابل هو وجيشه مع جيش المغرب فى حين تقابل حلفاؤه مع جيش الاندلس ، ودارت رحى الحرب على اشد ما يكون بين الجانبين ، وكادت الكفة تميل الى جانب العدو ، فتدخلت القوات الاحتياطية التى احتفظ بها يوسف بن تاشفين لهذا الموقف ، وخالفت اعداد منها الى معسكر الفونس فأضرمت فيه النار ، واشتبكت مع من كان فيه من الحامية فتغلبت عليها ، وتراجع العدو ووقع الخلل فى تعبئته ، فتبعه جيش المسلمين يفتك ويأسر ، وأشرف يوسف على هذه العمليات بنفسه ، وكان يحرض المجاهدين ويقوى نفوسهم ، فاستمرت الهزيمة على العدو ، وأيقن الفونس بالفناء ، ففر تحت جنح الليل فى نحو خمسمائة فارس على غير طريق ، مثخنين بالجراح ، بحيث مات اكثرهم قبل الوصول الى طليطلة .

معركة الزلاقة الحاسمة

وكانت هذه المعركة الحاسمة من اعظم المعارك التى جرت بين المسلمين والاسبان فى الاندلس ، اذ قتل فيها معظم جيش العدو الذى لم يكن يقل

عن مائة الف شخص ، وكسرت شوكة الاسبان الى حين طويل ، وأمد الله بسببها فى حياة الاندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف قـــرن ، وكان الاسبان قد اجمعوا امرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الاندلسية فى تلك الفترة التى بلغت دولتهـم فيها منتهى الضعف تحت حكم ملوك الطوائف ، ولكن الله خيب أملهـــم وأبطل تدبيرهم وعادت لدولة الاسلام فى الاندلس عزتها وصولتها .

وكانت هذه الواقعة العظمى يوم الجمـــعة 11 رجـب 479 كما فـى القرطاس ، قال : وهو الموافق للثالث والعشرين من شهر أكتوبر ، يعنى سنة 1086 ، واجتمع ملوك الاندلس وأمراؤها الذين شهدوا الحرب مـع يوسف، فسلموا عليه بأمير المسلمين وهنؤوه بالنصر ، وخرجت كتبـــه مصدرة بلقب امير المسلمين الى بلاد العدوة والاندلس ، فقرئت على المنابر ولعل ذلك ما حمل بعضهم على القول بأنه انما لقب بهذا الاسم بعد معركة الزلاقة ، ومما سجل ليوسف مـن المآثر فى هذه المعركة تجافيه عـن الغنائم التى جمعت فيـــها وتركـها الملوك الاندلس ، مبرهنا بذلك على نزاهة قصده وعفة نفسه ، وكانت هذه الغنائم شيئا كثيرا مما اطلق السنة الاندلسيين بالثـناء عليـه ، والاعتراف بالجميل ، وان كانت بعد ذلك لم تتورع أن تتهمه بالحـــرص والطمع ، وان ذلك كان هو باعثه على استصفاء ملوك الطوائف .

ولم يطل يوسف المقام بالاندلس اذ وصله نبأ وفاة ابنه ابى بكر ، وكان تركه مريضا بسبتة فاغتنـــم لذلك وانصرف راجعا الى المغرب ، وأقام بمراكش الى سنة 480 فخرج فى شهر ربيع الآخر منها يتطـــوف على البلاد ويتفقد احوال الرعية .

جوازه ثانيا الى الاندلس

وفى سنة 481 جاز الى الاندلس جوازه الثانى برسم الجهاد ، تلبية لدعوة ابن عباد ، وقـــد انطلقت

فرسان العدو من حصن ليط المتاخم لبلاده ، تعيث فى الارض فسادا وتقتل وتأسر كل يوم ، بحيث جعلوا ذلك وظيفة لهم ، وقد قصروا تحركاتهم هذه على مملكة ابن عباد انتقاما منه لانه كان السبب في دخول المرابطيـــن الى الاندلـس ووقوع غزوة الزلاقة . فلما وصل الى الاندلس ، تلقاه ابـــن عـباد ، وكتب الى ملوك الاندلس يدعوهم الى الجهاد ، وقال لهم الموعد بيننا حصن ليبط ، فلم يصل اليه ممن كتب اليهم الا صاحب مرسية ، وحاصر يوسف الحصن المذكور اربعة اشهر الى أن دخل فصل الشتاء ، ووقع شنآن بين ابن عباد وابن عبد العزيز صاحب مرسية ، واختلت احوال الجيش ، وجاء المدد الى الحصن فاقلع عنـــه يوسف ورجع الى المغرب ، وقد تغير على ملوك الاندلس لكونهم تخلفوا عن دعوتـه .

واما العدو فقد عمد الى الحصن وأخلاه ، لان الحصار كان انهكه ، ولم يبق فيه من يستطيع الدفاع ، فاستولى عليه ابن عباد .

وهذا الذى ذكرناه فى الجـواز الثانى ليوسف هو رواية صاحـب القرطاس ، وفى رواية الحلل الموشية بعض مخالفة لذلك ، وأن الامر لم لم يكن يتعلق بالمعتمد وحده ، فأهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة ، كلهم كانوا يتعرضون لغزوات العدو وكلهم استنجدوا بيوسف ، وحصار حصن ليط كان مناوبة بين جيوش هذه البلاد تحت نظر يوسف لكن نيات ملوك الطوائف كانت قد فسدت وجعل بعضهم يسعى ببعض لــدى يوسف ، ومن المحقق ان رعاياهـم لم يكونوا راضين عنهم ، وان حياة اللهو والاستهتار التى كانوا يحيونها لم تدع لهم وقتا ولا عزيمة لحماية بلادهم ، وصد قوات العدو عنهم ، وبالرغم من أن يوسف لما عاد الى المغرب ترك بأرض الأندلس جيشـا لحماية الثغور ومطاردة العدو ، فان هذا الجيش قد تعـــرض للضياع

من جراء اهمال اولئك الملوك له ، ومداخلة بعضهم للعدو ضدا على جيش المرابطين .

قال ابن خلدون : « وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ، فساء نظره فيهم ، وافتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم ، وصارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما »

جوازه الثالث

وهذا الى توالى استنجاد أهل الاندلس به ، خاصتهم وعامتهم ، وطلبهم منه انقاذهم مما هم فيه من الظلم والغشم والروع والفزع ، فلما جاز الى الاندلس جوازه الثالث برسم الجهاد سنة 483 سار حتى نازل طليطلة وحاصرها ، والفونس بها فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناحيتها ، انتقاما مما فعله جيش الفونس بالمسلمين فى نواحى المدن سابقة الذكر ، والغارات التى كان فرسان حصن ليط يشنونها عليهم ليل نهار .. لكن الغريب فى الامر هو أن أحدا من ملوك الاندلس لم يأته ولا عرج عليه . فلما شفى نفسه من طليطلة سار الى غرناطة ، وكان صاحبها عبد الله بن بلكين قد ظاهر الفونس على يوسف فأخذها من يده هى ومالقة التى كانت بيد اخيه ، وسيرهما معا الى مراكش مع حريمهما واولادهما ، فاقاما بها واجرى عليهما النفقة الى أن ماتا بها كما ذكر ابن الخطيب وصاحب القرطاس (1) .

---

(1) وما فى مذكرات عبد الله من أنه سيرهما الى اغمات يظهر أنه كان فى أول الامر .

تصفية ممالك الطوائف

ولما خلع يوسف ابن بلكين عن ملك غرناطة ، طمع المعتمد بن عباد في تسليمها له ، فتجافى عنه يوسف ورجع الى مراكش ، وقدم على الاندلس قائده سير بن ابى بكر اللمتونى ، وفوض اليه في مصيرها وان لم يأمره في ابن عباد بشيء فسار نحو اشبيلية وهو يظن ان ابن عباد سيخرج اليه ويتلقاه بالضيافة فلم يفعل وتحصن منه فراسله سير في أن يسلم اليه البلاد فامتنع المعتمد ، فلم يكن بد من القتال .. وهكذا سقطت اشبيلية في يد المرابطين وتقبض سير على المعتمد وأهله وولده وسيرهم الى المغرب .

وتتابع وقوع العواصم الاندلسية في يد قواد المرابطين واستسلام اصحابها او هلاكهم في الدفاع عنها كما وقع لابن الافطس صاحب بطليوس . وكانت سنة 484 حاسمة في استصفاء ممالك الطوائف ، اذ سقطت فيها قرطبة واشبيلية وجيان وغيرها ، وفي السنة التى تليها سقطت دانية وبلنسية ، وفي سنة 486 فتحت مدينة افراغ من بلاد شرق الاندلس ، ولم يزل الفتح يتوالى وجهاد العدو وحماية الثغور ديدن الجيش المغربى حتى خلصت البلاد كلها ليوسف بن تاشفين ما عدا ولاية الثغر الاعلى التى بقيت بيد ابن هود باقرار يوسف له عليها لما اظهره من روح المسالمة وقوله له : « نحن بينكم وبين العدو سد لا يصلكم منه ضرر » مع تحصينه لبلده وضبط امرها .

وكما رأينا فان يوسف قد بذل مجهودا عظيما في استصلاح احوال الاندلس ، وجهاد العدو المغير على ممالكها استجابة لدعوة اهلها من ملوك وأمراء ، وخاصة وعامة ، وكان عمله في اصلاح ذات البين ، ما بين القادة والزعماء اكثر من عمله في اى ميدان ءاخر ، ولكن النزاع لم يزل مستشريا بينهم ، والخصومة

على اشدها ، واللجوء الى العـــدو احتماء به وانتصارا على المنافـــس شنشنة لم يقلعوا عنها ، حتى بعد نجدة يوسف لهم وهزيمة هذا العدو في موقعة الزلاقة ، بل انهم لمـــا استوحشوا من يوسف ، واستشعروا غضبه عليهم ، وخافوا من عقابـــه وانتقامه ، لم يترددوا أن يضعوا يدهم في يد العدو ، ويستظهروا به عليه ، وعادت هيف الى اديانها ، واصبحت سيطرة العدو على الاندلس كما كان يتمنى ، قاب قوسين أو ادنـى .

ففي مثل هذا الوضع لم يكـــن هناك وسيلة للانقاذ ، ولا سبيل الى الاحتفاظ ببلاد الاندلس للعرب والمسلمين ، الا ما قام به يوسف من استخلاصها من يد هؤلاء الزعماء والقادة الذين لم يكونــوا يقدرون مسؤوليتهم، وفي كل يوم يستعجلون النهاية المحتومة لوجودهم بسبـــب فرقتهم وتخاذلهم ، وعلى احســـن الاحتمالات ومع عدم اساءة الظن بهم، فان ما كان يمليه الموقف لاستمرار السيادة الاسلامية على هذه البلاد ، وتفادى وقوعها العاجل في يد العدو هو ما فعله يوسف ، وتدارك بـــه الامر ، قبل حصول الكارثة . وما أشبه ما كانت عليه الحـــال فـي الاندلس وقتئذ ، بما عليه حال البلاد العربية اليوم مـن التقسيم والخلاف والتبعية للأجنبي ، وتبديد طاقاتها في المعارك الداخلية ، والعدو جاثم على صدرها يسومها الـــذل والهوان ، ويقتطع كل يوم من ارضها ما يوسع به الاقليم الخاضع لنفوذه، الذى اغتصبـــه في غفلتها وســـوء تصرف حكامها فهي أحوج ما يكون الى قائد عصامي مثل يوسف يرأب صدعها ويلم شملها ويطهر ارضها من رجس العدو والدخيل ..

فمن يعترض على تدخل يوسف في الاندلس وتوحيـــده لاقاليمـــها الموزعة بيـن ملـــوك الطوائف ، الخاضعين لنفوذ الفونس المؤتمرين بأمره ، هو كمن يعترض اليوم على

من يعمل لوحدة العرب وجمع كلمتهم ، لطرد الصهاينة المعتدين وجعل حد لاستهتار الزعماء والقادة العرب ، بقضية فلسطين الشهيدة والقدس المحتل .

معاملته للمعتمد

ويؤخذ على يوسف معاملته للمعتمد بن عباد وسجنه له بأغمات وهي قضية عاطفية ضخمها الادب الذى انشأ حول مصير هذا الملك السيء الحظ ، وما قاله هو في نكبته من اشعار مؤثرة ، ولو نظرنا اليها بعين الانصاف ، لما اعطيناها هذه الصفة المأسوية التى جعلتها تثار فى كل مناسبة .

لقد وقع ابن عباد فى الاسر ، وكان ابن تاشفين قد اوصى قائده بالابقاء عليه ، وعدم قتله ، فأتاح له فرصة العمر ليملأ الدنيا بالبكاء على ملكه الضائع ، والشكاية من غدر الايام . ولما كانت الدنيا لا تخلو من ذوى العواطف الرقيقة ، من الذين ينظرون الى مصلحة الفرد قبل مصلحة الجماعة، فان مصير المعتمد لم يفتأ يثير الشجون ويورث الغيظ على ابن تاشفين عند طبقة من الناس وخاصة بطانته السابقة من الندمان والشعراء ، ومن اشبههم فى الازمنة المتلاحقة .. لكن الذين ينظرون الى عمل يوسف من زاوية السياسة القومية التى تتطلب الضبط والحزم وحماية بلاد العروبة والاسلام ، لا يترددون فى أنه عمل شرعى ، وان تثقيفه للمعتمد فى أغمات لم يكن منه بد ، وهو أقل ما تقضى به الاعراف السياسية والقوانين الحربية لا سيما وقد بارز بالعداوة قائد يوسف وقلب له ظهر المجن ، وداخل عدو المسلمين - فيما يقول ابن خلدون - للاستظهار به على جيش المغرب ، فتوافرت الدواعى الى مقاتلته وأسره .

ولقد كان هناك من ملوك الطوائف من سالم او استسلم فآل

أمره الى التكريم والرعاية لاهله وذويه فليس ما يطبع سياسة المرابطين أو البربر كما يعبر بعض الكتاب هـو القسوة ، فان القوم كانوا مـــن الالتزام بشريعة الاسلام ومشاورة أهل الفقه والدين ، بحيث لم يثبت عليهم أنهم أراقوا محجم دم فى غير مواطن الحرب . ولو كان الامـر صادرا عن طبيعة وغريزة لما فرقوا فى المعاملة بين هذا وذاك ممن وقع فى ايديهم من ملوك وأمراء .

على أن ثقاف المعتمد فى أول الامر انما كان بمثابة ما نعبر عنه اليوم بالاقامة الاجبارية ، بدليل أنه كان يستقبل الزوار ويدخل عليه الشعراء فيمدحونه ويجيزهم . وانما وقــع التشديد عليه حين ثار ابنه عبد الجبار بأحد حصون الاندلس ومع ذلك فلا تقاس معاملة يوسف له بما كان ملوك الاندلس يعاملون به خصومهم من ضروب العنف والقسوة والبطش وعند الله تجتمع الخصوم .

نفى تقولات الخصوم عليه

كذلك يتندر كثير من الكتـــاب بما أشاعه أدباء الاندلس وخاصـــة بطانة المعتمد عن يوسف ، من كونه يجهل العربية جهلا تاما ، ولا يعرف الا البربرية ، حتى انهم ربما ذكروا أن مضامين الرسائل التى ترد عليه انما كانت تبلغ اليه بطريق الترجمة من كتابه . ويروون أن المعتمد كتب اليه ذات مرة رسالة انشد فيها بيت ابن زيدون القائل :

حالت لفقدكم ايامنا فغدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه قال : لعله يطلب منا جوارى سودا وبيضا ، والمعروف أن كتابه الصدور كانوا من الاندلس وليس عندنا دليل من التاريخ على أنهم كانوا يحسنون البربرية حتى نسلم أنهم يستطيعون ان يترجموا اليها الرسائل الواردة عليه ويبلغوه مضامينها ، وكيف يتصور أن ملكا

مثل يوسف فى سعة ملكه وضبطه وحزمه ، يمكنه أن يصرف الامور ، ورسائلــه الصـادرة والـواردة ، ومنشوراته ومراسيمه تحرر بلغة لا يعرفها وانما يحاط علما بمضامينها؟

وهل هناك اسخف من هذه الرواية التى تقول ان يوسف لما سمع بيت ابن زيدون ، علق عليه بذلــك الكلام الصبيانى ؟ ولنجار هــؤلاء الرواة الموتوريـــن فى سخافتهـم ، فنسألهم عن الرسالة التى كتبهـــا المعتمد اليه وضمنها ذلك البيت ، أين هى ؟ أليست تكون عنقاء مغرب، لو كتبت بالفعل ، فيتناقلها الناس ويسجلها المؤرخون ؟ وما معنى أن ينشد المعتمد فى هذه الرسالة بيت ابن زيدون الــذى يقول « حالت بفقدكم » ويوسف لم يفقد ؟ فهـــل نتخذ ذلك حجة على انعدام الذوق وقلة الفهم عند المعتمد ؟

الحقيقة أن يوسف كان على جانب من العلم والمعرفة بالعربية والديـن ونصوصهما الاولى وهـــى القــرءان والسنة النبوية لا يجوز معه أن يقال انه يحتاج فى فهم الكتب المحررة بالعربية الى ترجمان ، واحرى ان يقال انه لايعرف العربية مطلقا ، يدل على ذلك ما قدمناه فى الكلام على نشأته وتكوينه ، وما يقدر أن يكون حصله اثناء انقطاعه فى رباط عبد الله بن ياسين من المعلومات الضرورية وقبله ، وهو أمر يعد فى جملة المؤهلات التى جعلته يختار من بين العديدين من رجال لمتونة للقيادة والزعامة ، حتى كان ثانى رجـــل بالدولة أيام امارة ابى بكر بن عمر ثم رجلها الفذ وأمير المسلمين بعد ذلك الذى لم ينازعه أحد ، ولم يشك فى أهليته وتقدمه واستحقاقه قريب او بعيد . وقد برهن فى تسييره لشؤون الدولة وتدبيره للحـــروب على جدارته وكفاءته ومقدرته ، مما لا يستقيم ابدا لرجل جاهل سادج لا يعرف حتى اللغة التى يدير بهـــا سياسة بلاده ، كما يزعم القوم .

على أن اولئك الرواة لما كانـــت

العلاقات ما تزال طيبة بين المغرب والاندلس قد رووا لنا ما ينقض قولهم هذا ، وهو جوابه للفونس قبل موقعة الزلاقة ، فقد كتب اليه الفونس يهدده ويحاول ان يثنيه عن عزمه على نصرة ملوك الاندلس واصراخ اهلها وذكر من قوته وما أعده لقتاله ما ظن أنه يؤثر في يوسف ، فيتأخر عن قصده . فأجابه عن يوسف ابوبكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من وزراء المعتمد وكتابه ، بكتاب احتفل فيه ما شاء ، وكان كاتبا مفلقا ، قالوا ، فلما قرأه على يوسف ، قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الفونس وكتب على ظهره « الجواب ما ترى لا ما تسمع » وفي رواية أخرى انه كتب عليه : « ان الذى يكون ستراه » ، وكان لهذا الجواب وقع عظيم فى نفس الفونس الذى عرف أنه بلى برجل يفعل ولا يقول .

فهذه الرواية لم تقل انه ترجم له جواب الكاتب ابن القصيرة الى البربرية ، وانما ذكرت انه قرىء عليه فاستطاله ، واستعاض عنه بجواب من جوامع الكلم ، بقى مثلا مضروبا على شدة الحزم وقوةالبأس وعظمة النفس الى الان . وقد تفردت من بين الروايات الاخرى باثبات واقع الحال والاعتراف بحقيقة الرجل لانها رويت قبل ان يظلم الجوبينه وبين خصومه ولعل ما قلناه فى هذا الموضوع يكفي لتبديد كل الترهات التي تدور حوله ، لاسيما وهي لغو من القول ، وهزل لا يستحق أن يحمل على الجدية بحال .

جوازه الرابع الى الاندلس

ولما دانت الاندلس ليوسف واستتب له بها الامر ، جاز اليها جوازه الرابع والاخير ، متفقدا لاحوالها متعهدا مصالحها ، وذلك فيما بين سنتى 496 و 497 حسبما يستفاد من كتاب الحلل الموشية وتاريخ ابن خلدون . على أن صاحب القرطاس كذلك يذكر أنه فى سنة

496 أخذ البيعة لولده على بقرطبة . فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها ، وذلك في ذى الحجة منها ، فجوازه هذا كان لاخذ بيعة الاندلسيين لولى عهده التى أبرمت في المغرب سنة 495 وللنظر في الشؤون السياسية للبلاد ، وضبط الثغور ، وقد صرف بعض الولاة وعين ءاخرين ، وكان ذلك ايذانا بتدشين عهد جديد في الجزيرة ، وهو عهد الاستقرار والسلم بعد زمن الفوضى والحروب . قال في الحلل، وهو يتحدث عن جواز يوسف هذا الى الاندلس « ولما جال فى بلادها وتطوف على اقطارها شبهها بعقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وصدره جيان ومخالبه غرناطة وجناحه الايمن بلاد الغرب وجناحه الايسر بلاد الشرق .. وبيان كيفية وضعها وتمثيلها في الصفرة(I) يبدو بيان هذا التشبيه الذى هو راجع الى سياسة أمرها واعتبار احوالها » ونزيد فنقول ان هذا التشبيه العظيم هو مما يتعرف به بعد نظر يوسف وحصافة رأيه وصحة تصوره وسداد حكمه ، فهل من يصدر عنه مثله يكون من السدافة بالمثابة التى تجعله يقول في بيت ابن زيدون ما قوله اياه الخصوم الموتورون ؟

كلمات وآراء ليوسف

ويحسن أن نورد هنا ما جاء في ترجمته عند ابن خلكان من كلام منسوب له في اعتبار احوال المعتمد والتعليق على حياته الخاصة ، وهو كلام يدل على تفكير سياسي ناضج ونظر سديد في تدبير شؤون الملك فقد ذكر ابن خلكان ان يوسف عند قصده ملاقاة الفونس تحرى المسير اليه بالعراء من غير أن يمر بمدينة أورستاق حتى نزل الزلاقة ، وهذا خلاف ما قدمناه من

(I) يعنى : الخارطة الجغرافية .

انه توجه اولا الى اشبيلية ، ومنها كانت انطلاقته هـو والمعتـمد الى الزلاقة ، فهي رواية أخرى ، قال :

« ولما قضى امير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى ، امر عساكـره بالمقام ، وان تشن الغارات على بلاد الفرنج ، وأمر عليهم سير بن أبـي بكر ، وطلب الزجوع فى طريقه ، فتكرم به ابن عباد فعرج به الى بلاده وسأله ان ينزل عنده »، فأجابه يوسف الى ذلك :

« فلما انتهى يوسف الى اشبيلية مدينة المعتمد ، وكانت من أجمـل المدن منظرا ، ونظر الى موقعها على نهر عظيم مستبحر ، تجرى فيـه السفن بالبضائع ، جالبة من بلاد المغرب وحاملة اليه ، فى غربيـه رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على ءالاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، وهذا الموضع هو المسمى فرق اشبيلية ، وتميز بلاد المغرب كلها من هذه الاصناف، وفى جانب المدينة قصـور المعتمـد وأبيه المعتضد فى غاية الحسـن والبهاء ، وفيها انواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبـوس والمفروش وغير ذلك فانزل المعتمد يوسف بن تاشفين فى أحدها ، وتولى من اكرامه وخدمته ما اوسع شكر ابن تاشفين له .

« وكان مع ابن تاشفين اصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هو عليه من النعمة والاتراف ، ويغرونه باتخـاذ مثلهـا لنفسه ، ويقولون ان فائدة الملك ، قطـع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد واصحابه ، وكان يوسف بن تاشفين مقتصرا فى أمـوره غيـر متطاول ولا مبذر متنوق فى صفوف الملاذ بالاطعمة وغيرها ، وكان قد ذهب صدر عمره فى بلاده فى شظف العيش ، فأنكر على مغريه بذلـك الاسراف ، وقال : « الذى يلوح من أمر هذا الرجل — يعنى المعتمد — انه مضيع لما فى يده من الملك ، لان هذه الاموال التى تعينه على هذه

الاحوال لابد ان يكون لها ارباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل ابدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه في هذه الترهات ، ، وهذا من أفحش الاستهتار ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاجوفين ، متى تستنجد همته في حفظ بلاده ، وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها » وزاد ابن خلكان :

« ثم ان يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته ، هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الاوقات ، فقيل له : لا بل كل زمانه على هذا ، قال : أفكل أصحابه وانصاره على عدوه ومنجديه على الملك ، ينال حظا من ذلك ؟ قالوا : لا . فقال كيف ترون رضاهم عنه ؟ قالوا : لا رضى لهم عنه فأطرق يوسف وسكت » .

ان هذه المحاورة التي جرت بين العاهل المغربي وبطانته من قواده المقربين اليه ، لدليل على بعد غوره وتمرسه بسياسة الملك ، ونزاهته وعفته ، واستقلاله بالرأى وعدم اسلاس القيادة لهذه البطانة التي أمرته بالسوء وأشارت عليه بما فيه فتنته وضياع مملكته لو اتبع اشارتها ، ولكنه وهو الرجل الحكيم والناقد البصير ، جعل يبين لاصحابه ما في تلك الخطة من الفساد وظلم الرعية ، واستعجال الخراب لبلاده فألقى عليهم درسا عظيما في أصول الحكم وتدبير الممالك ، ونبههم الى المصير المظلم الذى ينتظر المعتمد ، ومن على شاكلته من الحكام المفرطين في مصالح رعاياهم ، المنهمكين في الملاهي والملاذ ، المضيعين لمقدرات بلادهم فيما لا يعود عليهم وعليها الا بالهلاك والدمار وبهذا تتبين لنا عظمة يوسف وعبقريته الفكرية والسياسية ، اضافة الى عبقريته العسكرية والحربية التي لا مطعن فيها فان هذه النظرة الفاحصة التي القاها على حياة المعتمد والنتائج التي استخلصها منها، تقدمه الينا في صورة مفكر كبير ومصلح عظيم ،

يتعمق بواطن الامور ولا يكتفي بظواهرها ، قد ملك زمام نفسه فلم يغتر بما يزينه الناس من الباطل وسار في أمره على ما يعرفه من حق وصواب ، فلم يكن من السهل أن يستدرج أو يخدع ، فأين ما يقوله الخصوم عنه من الهراء والكلام الفارغ ؟

الحقيقة انه لولا الغرض والشهوة والعصبية البلدانية من اهل الاندلس والتقليد الاعمى ممن جاء بعدهم ، لكان هذا الكلام وحده من اعظم ما يبعث على انصاف يوسف وتقدير عمله ، واعتباره ثورة على الظلم والاستئثار والفساد ، فضلا عن انقاذه البلاد من الوقوع في يد العدو وتقليص ظل الاسلام والحضارة العربية عنها منذ القرن الخامس الهجري .

ولو كان هذا الكلام الذي فاه به العاهل المغربي لبطانته صدر من احد ملوك الافرنج لتلقى بمزيد الاعجاب ولشفق وعلق عليه بما يجعله دستورا من دساتير الحكم ، وقانونا من قوانين السياسة ، تستخرج منه العبر والعظات وتؤخذ منه المغازي والمثلات ، حتى لا يبقى وجه من وجوه النظر لا يقلب عليه فليت شعري متى يستيقظ العرب والمسلمون من سباتهم ، ويقدرون رجالاتهم الذين صنعوا تاريخهم ، ، وأبلوا البلاء الحسن في الحفاظ على كرامتهم ؟..

انضواؤه تحت لواء

الخلافة العباسية

هذا ولعل العمل الجليل الذي قام به يوسف بعد انقاذه للاندلس هو انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية ، وطلبه العهد من خليفة بغداد على ما بيده من الاقاليم لتكون ولايته شرعية ، بحسب النظر الاسلامي ، حتى لا يعد خارجا على الامام الاعظم الذي هو أمير المومنين وخليفة المسلمين ، ومن ثم تسمى

بأمير المسلمين ورفض أن يلقب بأمير المومنين كما سبق الالماع الى ذلك .

قال ابن خلدون : « وتسمى يوسف بأمير المسلمين وخاطب الخليفة لعهده ببغداد ، وهو ابو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الا شبيلي وولده القاضى ابابكر بن العربى الامام المشهور ، فتلطفا في القول واحسنا في الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لامير المسلمين بالمغرب والاندلس ، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة ، منقول فى ايدى الناس ، وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما الى نظره من الاقطار والاقاليم ، وخاطبه الامام الغزالي وابوبكر الطرطوشى يحضانه على العهد والتمسك بالخير .

وكان هذا قبل جوازه الرابع الى الاندلس سنة 497 .

ويعلق صاحب الاستقصا على هذا الام رفيقول : « وانما احتاج امير المسلمين الى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع انه كان بعيدا عنه وأقوى شكيمة منه ، لتكون ولايته مستندة الى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله .

لقد رد يوسف بسياسته هذه المغرب الى احضان الجامعة الاسلامية بعدما كانت الدول التى نشأت فيه من قبل ، قد اقتطعته منها . وتلك ولاشك خطة مستمدة من تعاليم عبد الله بن ياسين التى كان يلقيها الى تلاميذه المخلصين ومنهم عاهلنا العظيم ، ومن اشارات جلسائه الفقهاء الذين كانوا اقرب الناس اليه واكثرهم نفوذا فى دولة المرابطين على العموم منذ قيامها ، بحيث لا يبرم أمر ويصدر حكم الا بعد اخذ رأيهم فيه ، حتى لقد كثر ما انتقد المؤرخون خضوع هذه الدولة لسيطرة الفقهاء ناسين او متناسين ان الدولة اسلامية ، وان اعرف الناس

باحكام دولة الاسلام هم الفقهاء ، فاستشارتهم والاخذ برأيهم هو من الرجوع الى اهل الاختصاص وتوسيد الامر الى ذويه ، ولو لم يكن من نتيجة لذلك الا هذا التدبير الحكيم الذى اعاد الرباط السياسى لدولة الاسلام الى ما كان عليه من قوة وفعالية ، لما كانت هذه الدولة تنشر اجنحتها على بلاد الاسلام قاطبة فى المشرق والمغرب ، لكان علينا ان نشيد بسلوك المرابطين فى تقريبهم للفقهاء ونزكى الحكم الذى تكون اليد العليا فيه للفقهاء .

ولعل نجاح هذا المسعى الحميد وتحقيقه على يد سفارة من رجال الفقه الاعلام هو مما يؤيد نظرنا فى ذلك ، ويظهر الفرق العظيم بين اعمال مستشارين من الفقهاء واعمال غيرهم من مختلف الطبقات .

انتشار ذكره وسمعته فى المشرق

وقد طال ليوسف بهذه السياسة الرشيدة ، والسيرة الحميدة ذكر جميل فى أقطار المشرق ، حتى تشوفت اليه أنظار كبار الشخصيات فيه . فقد قال ابن خلكان فى ترجمته « وكان حازما سائسا للامور ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا لاهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم ، وبلغنى أن الامام أبا حامد الغزالى تغمده الله برحمته لما سمع ما هو عليه من الاوصاف الحميدة ، وميله الى أهل العلم ، عزم على التوجه اليه ، فوصل الى الاسكندرية وشرع فى تجهيز ما يحتاج اليه فوصله خبر وفاته ، فرجع عن ذلك العزم ، وكنت وقفت على هذا الفصل فى بعض الكتب ، وقد ذهب عنى فى هذا الوقت من أين وجدته » . وناهيك بهذه السمعة الطيبة التى تحمل قطبا من اقطاب العلم والدين على شد الرحلة من المشرق الى زيارة صاحبها فى اقصى المغرب ، مع ما علم من اجتناب العلماء ورجال الدين للقرب من الملوك والسلاطين ، وعدم رغبتهم فى لقائهم حتى عند حرص هؤلاء

على ذلك .

فكفى يوسف هذه المكرمةالعظيمة التى تبين من فضله ورفعة قدره وعلو شأنه عند اقطاب العالم الاسلامى بالمشرق ما خفى على بعض المتحاملين عليه من أهل الأندلس والسائرين فى ركابهم . وما احسن قول الحماسى :

لقد زادنى حبا لنفسى اننى
بغيض الى كل امرىء غير طائل

صفاته واخلاقه

واشار ابن خلكان بعد كلامه السابق الى صفة يوسف الخلقية بفتح الخاء بعد ذكره لصفته الخلقية بضمها ، وهذا الوصف هو عند ابن ابى زرع أتم وأكمل ، فنحن ننقل قوله فيه لعمومه وشموله . قال رحمه الله بعدما ذكر اسمه واسم ءابائه ثم ذكر اسم أمه وهو فاطمة بنت سير بن يحيى من ابناء عمومته اللمتونيين : « صفته اسمر اللون نقيه ، معتدل القامة نحيف الجسم، خفيف العارضين ، رقيق الصوت ، أكحل العينين ، أقنى الانف ، له وفرة تبلغ شحمة أذنيه ، مقرون الحاجبين ، جعد الشعر ، وكان رحمه الله بطلا نجدا شجاعا حازما مهابا ضابطا لملكه ، متفقدا الموالى من رعيته ، حافظا لبلاده وثغوره ، مواظبا على الجهاد ، مؤيدا منصورا، جوادا كريما سخيا ، زاهدا فى الدنيا متورعا عادلا صالحا ، متقشفا على ما فتح الله عليه من الدنيا ، لباسه الصوف ، لم يلبس قط غيره ، وأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها ، مقتصرا على ذلك لم ينتقل منه مدة عمره الى أن توفى رحمه الله تعالى على ما منحه الله من سعة الملك فى الدنيا وخوله منها ، فانه خطب له بالاندلس والمغرب على الف وسبعمائة منبر » .

سعة مملكته

ثم يقول ابن ابى زرع مبينا سعة

مملكة ابن تاشفين ونقاء سيرته ·

« وكان ملكه من مدينة افراغة من ناحية شرق الاندلس الى مدينة الاشبونة على البحر المحيط من غرب بلاد الاندلس ، وبالمغرب من جزائر بنى مزغنة (الجزائر العاصمة) الى طنجة ، الى ءاخر السوس الاقصى ، الى جبال الذهب من بلاد السودان ، ولم يوجد فى بلد من بلاده ولا فى عمل من اعماله ، على طول أيامه اسم مكس ولا معونة ، ولا خراج لا فى حاضرة ولا فى بادية الا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والاعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين .. وجبى من ذلك المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله ، ورد أحكام البلاد الى القضاة واسقط ما دون الاحكام الشرعية ، وكان يسير فى أعماله فيتفقد احوال رعيته كل سنة . وكان محبا فى الفقهاء والعلماء والصلحاء مقربا لهم ، صادرا عن رأيهم ، مكرما لهم ، أجرى عليهم الارزاق من بيت المال طوال أيامه . وكان مع ذلك حسن الاخلاق متواضعا كثير الحياء ، جامعا لخصال الفضل ، وكان كما قال الفقيه الكاتب ابو حامد فيه وفى بنيه :

ملك له شرف العلى من حمير
واذا انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا احراز كل فضيلة
غلب الحياء عليهم فتلثموا ..

انتهى باختصار يسير . وجاء وصفه بالحلل الموشية على هذا المنوال ، الا أن فيه زيادات مفيدة وهذا نصه :

« كان رجلا فاضلا خيرا زكيا فطينا حاذقا لبيبا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ينيب الى خير وصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، أكبر عقابه الاعتقال الطويل وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ، ويصرف الامور اليهم ، ويأخذ برأيهم ويقضى على نفسه بفتياهم . أقامت

بلاد الاندلس فى مدته سعيدة حميدة فى رفاهية عيش وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة الى حين وفاته رحمه الله . وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة ءال عامر الى حين دخوله اليها . قدم اشياخ المرابطين فيهـا وكانوا أقواما ربتهـم الصحـراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الاسافل .. وتـــرك الثغور المواجهة لبلاد العدو فى حكم الاندلسيين لكونهم اخبر بأحوالها . وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ، مع الاحسان اليهم ، فلما قربـــت وفاته أوصى ابنه ولى العهد بعـــده أبا الحسن على ثلاث وصايا أحدهـا ألا يهيج أهل جبل درن (الاطلس) ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة الثانية أن يهادن بنى هود وأن يتركهم حائلا بينه وبين الروم ، الثالثة أن يقبل من محسن أهـــل الاندلـــس ويتجاوز عن مسيئهم » انتهى ببعض تصرف .

وفـــاتـــه

وتوفى يوسف بن تاشفين ، وقد بلغ عمره مائة سنة فى مستهل محرم كما عند ابن ابى زرع ، وقال ابن خلكان فى يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة . وما فى الحلل الموشية من انه توفى فى ربيع الاخر لا معول عليه . قال : « ودفن بقصره بحاضرة مراكش ، وحضر موته أبناؤه وعشرتـــه الصنهاجيـــة وأسرته اللمتونية ، وقبض وهو على أوله فى العزم والجد فى نصر الدين واظهار الكلمة وعضد الاسلام رحمة الله عليه »

ولابد أن نشير فى ءاخر هـــذه الترجمة الى ما مضى من وصـــف قوم يوسف بالملثمين ، وهو وصف كاشف لحالهم ، فانهم كانوا أهل صحراء ، يتقون لفح حرها باللثام، أما وصفهم بالمرابطين ، فلما سبق قيام دولتهم من دخولهم مع عبد الله بن ياسين الى المحل الذى رابـــط

فيه للعبادة وتربية من انقطع اليه عرب اليمن ، ولذلك المع ابن حامد من قبائل صنهاجة ، على ما بيناه في في شعره المتقدم حين قال :
ترجمة ابن ياسين وتنتسب قبائل
صنهاجة في اصلها الى حمير مـــن قوم لهم شرف العلى من حمير..

عبد الله كنون

أبو حيـــــان

ناقد تخريجات قراءات الزمخشري

بقلم : الدكتور الراجي التهامي الهاشمي

يخبرنا العلامة محمد بن يـوسف أبو حيـان الاندلسى ، الغرناطى ، الجيانى ، الشهير بأبى حيان(1) أنه جعل من تفسير أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عبد الرؤوف ابن عبد الله بن تمام ابن عطية المحاربى الغرناطى(2) المسمي(3) « الجامع المحرر » (4) ومن تفسير أبى القاسم محمود بن عمر محمد بن محمد الزمخشرى المسمى بالكشاف ، مرجعين مهمين لتصنيف تفسيره « البحر المحيط » .

---

(1) توفي سنة 745 هجرية خلافا لما جاء فى تفسير « البحر » الذى قال انه توفى سنة 754 هـ أنظر ترجمته فى بغية الوعاة صفحة 121 وفى وفيات الوفيات الجزء الثانى صفحة 282 وفى الدرر الكامنة صفحة 302 من الجزء الرابع وفى فهرس الفهارس الجزء الاول صفحة 108 وفى غاية النهايـة لابن الجزرى الجزء الثـانى صفـحة 285 وفى نفـح الطيب الجزء الاول صفحة 598 . وفى النجوم الزاهرة صفحة 111 وفى شذرات الذهب صفحة145.

(2) اما نقد ابى حيان لتخريجات القراءات القرآنية لابن عطية فانى اتعرض لها فى مجلة « دعوة الحق » . انظر الحلقة الاولى فى العدد الثالث من السنة الرابعة عشرة ابتداء من صفحة 110 والحلقة الثانية فى العدد الاول من السنة الخامسة عشرة ، ابتداء من صفحة 90 ، والثالثة فى العدد الثامن السنة الخامسة عشرة ابتداء من الصفحة 146 .

(3) أنظر مقدمة هذا التفسير فى كتاب « مقدمتان فى علوم القرآن» الذى نشره المستشرق Arthur Jeffery ابتداء من صفحة 251 ، طبعة القاهرة سنة 1954 .

(4) مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت الارقام 629 ، 630 ، 631 ، 632 . 633 . ويعرف كذلك بالمحرر الوجير . أنظر نسخة خزانة القرويين فى خمسة آجزاء (ق 186) .

فمن أجل هذا تصدى لهما آخذا عنهما ما يجوز أخذه وناقدا ما حاد عندهما عن الصواب . قال : « ولما كان كتابهما فى التفسير قد انجدا وأغارا ، وأشرقا فى سماء هذا العلم بدرين وأنارا ، وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الانسان من العين ، والذهب الابريز من العين ، ويتيمة الدر من اللآلى ، وليلة القدر من الليالى ، فعكف الناس شرقا وغربا عليهما ، وثنوا أعنة الاعتناء اليهما وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوى التبريز ، ومسرح للتخييل فيهما والتمييز ، ثنيت اليهما عنان الانتقاد ، وحللت ماتخيل الناس فيهما من الاعتقاد . انهما فى التفسير الغاية التى لا تدرك ، والمسلك الوعر الذى لا يكاد يسلك ، وعرضتهما على محك النظر ، وأوريت فيهما نار الفكر ، حتى خلص دسيسهما ، وبرز نفيسهما ؛ وسيرى ذلك من هو للنظر أهل(5) » .

فهذا كما ترى برنامج حافل . انه عازم على وضع تفسير للقرآن الكريم، معتمدا فى ذلك على كتب للتفسير كثيرة ، ومصنفات فى فنون أخرى عديدة ، ولكنه سيجعل من تفسيرى ابن عطية والزمخشرى مرجعين أساسيين . الا أنه عوض أن يكتفى بالنقل عنهما اعتمادا على اعتقاد الناس انهما فى التفسير الغاية التى لا تدرك ، فانه سيعرضهما على محك النظر ليخلص دسيسهما ويبرز نفيسهما .

وهكذا لن يترك فكرة تمر فى هذين الكتابين الا تصدى لهما مؤيدا أو مفندا ، وفى كل مرة يعزز ما يقول بحجج كثيرة ، وأدلة عقلية ونقلية تسكت الخصم .

---

(5) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 10 السطر الثامن .

لايهمنا اليوم انتقاداته الفقهية والنحوية واللغوية التى وجهها الى ابن عطية أو الى الزمخشرى ، وانما يهمنا ان نبحث فى بحره المحيط ، الواسع الارجاء ، العميق القعر ، عن مآخذه على الزمخشرى فى ميدان القراءات .

يعرف كل من قرأ الكشاف أن الزمخشرى يتعرض فى كثير من الاحيان الى القراءات يحاول تخريجها .

وان كان الزمخشرى مقرئا قبل كل شىء ، فقد كان اهتمامه بالقراءات من الامور التى تسترعى انتباه قارىء تفسيره ، اما لسداد الرأى الذى تصدر عنه فى بعض الاحيان ، واما لغلوها في الخطأ وبعدها عن الصواب فى كثير من الاحيـــــان .

وكل ما أخطأ فى تخريج قراءة ما ، أو أساء فهم تأويلها ، أو حاد عن الصواب في تخريجها ، تصدى له أبو حيان يصوب خطأه بشدة لا توصف ، وبقساوة غليظة بعيدة عن الادب واللياقة .

I ـ تعرض الزمخشرى يفسر كلمة « أ أنذرتهم » فى قوله تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون »(6) وبعد أن أتم التفسير الذى مزجه ، كعادته ، بتحليلات لغوية ، واشتقاقات موفقة ، تصدى لقراءتها قائلا فى آخر تخريجاته : « فان قلت ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفا ؟ قلت هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين : احدهما الاقدام على جمع الساكنين على غير حده ـ وحده ان يكون الاول ـ حرف لين والثانى

(6) السورة الثانية ، البقرة ، الآية 6 .

حرفا مدغما نحو قوله : الضالين ، وخويصة(7) ، والثانى : اخطاء طريق التخفيف ، لان طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين ، فأما القلب ألفا وهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ماقبلها كهمزة رأس والانـــذار(8) » .

فأغضب هذا الكلام الامام ابا حيان سيما وان القراءة التى يقول عنها الزمخشرى انها لحن خارج عن كلام العرب هى ، من جهة ، قراءة ورش(9) عن نافع(10) ؛ وهى قراءة مروية عن رسول الله بالتواتر ، لا يمكن بحال من الاحوال الطعن فيها . والتواتر ـ كما هو معلوم ـ « اتفاق طائفة على أمر ، تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، او وقوع الكذب منهم صدفة واتفاقا عن جماعة كذلك من مبدأ السند الى منتهاه ، ويكون مستند الطبقة الاخيرة منه الحس من مشاهدة او سماع ، فلا يتحقق التواتر الا اذا وجد العدد الموصوف بما ذكر فى كل الطبقات من بدء السند الى نهايته ، فلو فقد هذا العدد فى طبقة من طبقات السند انتفى التواتر »(11) .

وهى ، من جهة أخرى ، قراءة الاندلسيين والمغاربة ، يعرفونها معرفـــة دقيقة ويروونها فيهم خلف عن سلف .

---

(7) أنظر تفسير هذه اللفظة والحديث الشريف الذى رويت فيه عند محمد عليان المرزوقى الذى كتب تعليقات على تفسير الكشاف نشر اسفله ، صفحة 37 من الجزء الاول .

(8) الكشاف - الجزء الاول صفحة 37 ، ابتداء من السطر العاشر .

(9) توفى سنة 197 الموافق عام 813 ميلادية . انظر ترجمته عند الذهبى الجزء الاول ، صفحة 126 ، الترجمة رقم 9 .

(10) استاذ ورش واحد السبعة ، ثقة ، صالح توفى سنة 129 ، انظر ترجمته فى غاية النهاية لابن الجزرى الجزء الثانى ، صفحة 330 وفى الميزان الجزء الثانى صفحة 526 وفى معرفة القراء الكبار ، الجزء الاول ، صفحة 89 الترجمة رقم 3 .

(11) عبد الفتاح القاضى ، القراءات فى نظر المستشرقين والملحدين ـ مجلة الازهر ، عدد شوال 1391 الموافق لشهر نونبر 1971 ، صفحة 737 .

قلت اغضب تخريج الزمخشري الفاسد أباحيان غضبا شديدا ، فقال :

« .. وابدال الهمزة الثانية ألفا فيلتقي ساكنان على غير حدهما عند البصريين وقد أنكر هذه القراءة الزمخشري وزعم ان ذلك لحن وخروج عن كلام العرب من وجهين : احدهما الجمع بين ساكنين على غير حده ، الثاني طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها هو بالتسهيل بين بين لا بالقلب ألفا لان ذلك هو طريق الهمزة الساكنة وما قاله هو مذهب البصريين(12) وقد أجاز الكوفيون الجمع بين الساكنين(13) على غير الحد الذي اجازه البصريون . وقراءة ورش صحيحة النقل ، لا تدفع باختيار المذاهب ، ولكن عادة هذا الرجل اساءة الادب على أهل الاداء ونقلة القرآن (14) . »

وهذا كما ترى رد عنيف أحدثته ثورة عارمة لا ترحم .

ولاشك ان الزمخشري أساء التصرف هنا اذ لحن راويا من الرواة المعتمدين عند أهل الاداء . راو روى قراءة امام دار الهجرة ، نافع بن عبد الرحمن ابن ابي نعيم الليثي .

ومن أجل أن نكون فكرة عن القراءات المتواترة في همزتي هذه اللفظة القرآنية الكريمة « أ أنذرتهم » يشرفني أن أورد هنا بايجاز ما ذكره عنهـــا

---

(12) وقدموا حجة على ما يقولون بيت الاعشى الذي جاء فيه :

االن رات رجلا اعشى اضر به ريب الزمان ودهر مفسد خبل

أنظر « الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » لابي البركات الانباري ، الجزء الاول ، صفحة 391 ، من الطبعة الثالثة بالقاهرة سنة 1955 .

(13) قال الكوفيون : الدليل على انها ساكنة ان همزة بين بين لا يجوز ان تقع مبتدأة ، ولو كانت متحركة لجاز أن تقع مبتدأة ، فلما امتنع الابتداء بها دل على انها ساكنة ، لان الساكن لا يبتدأ به . ـ الانصاف المسألة 105 .

(14) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 47 ابتداء من السطر 30 وصفحة 48 من اولها الى السطر الثـاني .

علماؤنا الاجلاء المتخصصون . وسأحاول ان ارتب ذلـك ترتيبـا يبســط صعوبتهـــا .

والمشكل فى هذه اللفظة آت من اجتماع همزتين فى كلمة واحدة : همزة الاستفهام وهمزة القطع(16) . (15)

1 ـ اما الهمزة الاولى فليس فيها اشكال مطلقا ، ما دام القراء قد اتفقوا جميعهم على تحقيقها(17) .

2 ـ اما **الهمزة الثانية** ، فقد رويت فيها ثلاث قراءات :

أ ـ **محققـــة** كالاولى .

ب ـ مسهلـــة .

ج ـ مبدلـة ألفـا .

3 ـ ما بينهمـــا

ـ منهم من يدخل الفا بين الهمزتين

ـ منهم من لايدخله .

---

(15) والهمزتان هنا اتفقتا بالفتح .

(16) أنظر الراجى التهامى الهاشمى فى أطروحة الدولة المقدمة لجامعة مدريد تحت عنوان : Las controversias de las lecturas coranicas en Al Andaluz y marruecos حيث بسط القول فى الخلافات الناتجة عن اجتماع همزتين فى كلمة واحدة ابتداء من الصفحة 165 ألى صفحة 392 .

(17) أنظر تفسير ابى عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى ، طبعة دار الكتب ، الجزء الاول . صفحة 161 .

يستنتج مما سبق انه لم يبق لنا التحدث الا عن الهمزة الثانية وعن « ما بينهما »

ولقد رأينا أن الهمزة الثانية قرئت على ثلاثة اشكال :

ا – محققة ، وهى قراءة الجم الغفير الا من سأتحدث عنهم فى النقطتين الآتيتيـــن .

ب ـ مسهلة ، وقد قرأ بها ابن كثير(18) وقالون(19) وابو عمرو(20) وأبد جعفر(21) ورويس(22) والاصبهانى(23) كما قرأ بها قراء آخرون جاءوا مـــن بعـدهــم .

ولى على هذه النقطة ثلاث ملاحظات ، أرجو أن يتسع لها صدر من يدعى عندنا الاهتمام بالقراءات القرآنية ، وان يحاولوا فهمها على وجهها الصحيح .

أحب بادىء ذي بدء أن أسجل هنا أن هذا التسهيل لايمكن أن يكون الا بين الهمزة والالف ، وهو ما يؤكده ابن الجزرى(24) ، ويعززه أصل القراء الذين رووا هذه القراءة ، كما سيظهر ذلك من الملاحظة الثانية .

---

(18) عبد الله بن كثير بن المطلب من قبيلة بنى عبد الدار ، كان امام مكة – انظر ترجمته فى طبقات القراء لابن الجزرى ، الجزء الاول صفحة 443 .

(19) عيسى بن مينا ، ولد سنة 120 هجرية ـ 38–737 ، اخبرنا الدانى فى التسيير ص 4 انه توفى سنة 220 هجرية ـ 835 ميلادية وهو التاريخ الذى اعتمده ابن الجزرى فى غايته ، الجزء الاول صفحة 616 ، اما الاهوازى فظن انه توفى سنة 205 هـ ـ 21–820 .

(20) توفى بالكوفة سنة 154 هجرية الموافق 771 ميلادية – انظر ترجمته فى معرفة القراء الكبار ، الجزء الاول صفحة 83 الترجمة رقم 1 من الطبقة الرابعة .

(21) احد القراء العشرة ، روى القراءة عنه نافع وغيره ، توفى سنة 130 هجرية.

(22) محمد بن المتوكل ، مقرىء حاذق ضابط مشهور ، توفى سنة 238 هجرية ، أنظر ترجمته فى غاية النهائية ، الجزء الاول صفحة 234 .

(23) توفى سنة 371 هجرية .

(24) النشر فى القراءات العشر ، الجزء الاول ، 362 ، السطر السادس .

اما الملاحظة الثانية فانها ستبرز لنا قراءة التسهيل وستوضح روايتها من طرف قراء معينين .

نحن نعلم « أن أهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلبا للتخفيف(25) » ولذا قرأ بها الحرميان مطبقين ما ساد فى بيئتهما من عدم التحقيق . وقرأ بها بن العلاء وهو وان كان « من تميم ونسبه فيهم ونشأ على لهجتهم التى أصبحت له عادة وسليقة ، والتى لم تكن عند ه الا امرا عاديا لايثير منه اعجابا، فالتمس لهذا نماذجه من بيئة أخرى وهى البيئة الحجازية(26) » ، ولهذا فان قراءته توصف ، بحق ، كما عبر عنها ذات يوم الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه ، بأنها « قراءة قريش » .

اما الملاحظة الثالثة وهى حول قراءة ابن كثير لهذه الهمزة . كلنا نعرف ان ابن كثير حجازى فكان من المنتظر أن يقرأ الهمزة كما يقرأ بها الحجازيون لكننا نعرف ايضا ان ابن كثير خالف قراءة بيئته وقرأ بالتحقيق ، اشتهر عنه ذلك ، وعلمه الناس ، الا انه فى هذه اللفظة بالذات عاد الى عادة بيئته ، وخالف ما اشتهر عنه ، وسهل هذه الهمزة ؛ وهو امر وجب اثارة الانتباه اليه.

قال ابراهيم أنيس « ولو أن « ابن كثير » اشترك معهما فى تلك الصفة لاستطعنا بسهولة أن نحكم على أن القراء قد التزموا ما عرف عن بيئتهم من الهمز أو عدمه . ولكن كما قررنا آنفا قد خالف بعض القراء إحيانا فى قراءتهم صفات اللهجات التى شاعت بين ظهرانهم . ولئـن خالف « ابن كثير فى تسهيل الهمز ومال الى تحقيقه وهو مكى ، لقد خالف عاصم فى الامالة والادغام رغم انه كوفى»(27) .

(25) البحر المحيط الجزء الاول ، صفحة 47 ، السطر 27 .
(26) الدكتور ابراهيم انيس « فى اللهجات العربية » الطبعة الثالثة . صفحة 62 .
(27) فى اللهجات العربية ، الطبعة الثالثة ، صفحة 76 .

ويخبرنا ابن الحزرى عن الذين سهلوها بيـن بيـن فيقول (28) :
« وسهلوها عنه(29) بين بين صاحب العنوان(30) وشيخه الطرطوشى(31)
وأبو الحسن طاهر بن غلبون وأبو الحسن بن بليمة(32) وابو على الاهوازى
وغيرهـم .

ج ـ أما عن ابدال الهمزة الثانية الفا ، وهو مارآه الزمخشرى لحنـا
ونقده ابو حيان ، فقد قرأ به ورش(33) وأبو عمرو وأبو جعفر وقالون وروى
الحلوانى عن هشام نفس الشيء(34) .

ومما يزيد ، فى نظرى ، فى غرابة هذا التخريج الفاسد الذى ذهب اليه
الزمخشرى هو ان ابدال الهمزة الثانية الفا معروف عند العرب ، اجـازه
سبويه الذى قال عنه(35) : « ... وكان الخليل يستحب هذا القول(36) ،

---

(28) النشر فى القراءات العشر ، الجزء الاول ـ صفحة 363 ابتداء من السطر العاشر ـ

(29) يقصد به الازرق الذى توفى فى حدود 240 وهو أحد طريقى ورش عن نافع ـ أما الطريق الثانية لورش وهى طريق الاصبهانى الذى وقعت الاشارة اليه فى التعليق رقم 23 ـ

(30) الف كتاب العنوان الامام أبى طاهر اسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران الانصارى الاندلسى المتوفى سنة 455 هجرية ولا أعرف له وجود ، وان كنت اعلم انه كان موجودا بكثرة فى أواسط القرن التاسع الهجرى فى كل من الاندلس والشرق بدليل تداوله بكثرة بين الناس ـ النشر ـ الجزء الاول ، صفحة 64 ـ

(31) توفى سنة 455 كما قلت الموافق لـ 1063 ميلادية ، أنظر ترجمته فى غاية النهايـة الجزء الاول ، صفحة 164 ـ

(32) الحسن بن خلاف بن عبد الله بن بليمة (بتشديد اللام) صاحب كتاب « تلخيص العبارات بلطائف الاشارات » ازداد سنة 427 الموافق لعام 1035/1036 وتوفى سنة 514 الموافق لسنة 1120 ميلادية ـ

(33) أنظر التيسير فى القراءات السبع للامام الدانى ، صفحة 32 تحقيق Otto Pretze طبعة استنبول 1930 ـ

(34) النشر فى القراءات العشر ، الجزء الاول ، صفحة 365 السطر الخامس ـ

(35) الكتاب ، الجزء الثانى ، صفحة 167 السطر الثانى عشر من طبعة بولاق 1317 ـ

(36) أى ابدال الهمزة الثانية الفا ـ واعتقد أن كلام سبويه ، وان كان حجة على الزمخشرى وهو يتحدث عن شيء غامض ، لانه اعطى امثلة للاتقاء الهمزتين فى كلمتين ـ ومع ذلك اجرى عليهما حكم همزتين فى كلمة واحدة ـ الا أن الفقرات التى ساوردها توضح بجلاء مدى صحة رد ابى حيان وفساد تخريج الزمخشرى ـ

فقلت له : لم ؟ فقال انى رأيتهم حين أرادوا أن يبدلوا احدى الهمزتين اللتين تلتقيان في كلمة واحدة ابدلوا الآخرة(37)» .

وأفضل مما سبق قوله (38): « ومن العرب ناس يدخلون بين الف الاستفهام وبين الهمزة ألفا اذا التقتا ، وذلك لانهم كرهوا التقاء همزتين ، ففصلوا كما قالوا أحشينان ففصلوا بالالف كراهية التقاء هذه الحروف المضاعفة . قال ذو الرمة :

فيا طيبة الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم

هؤلاء أهل التحقيق . وأما أهل الحجاز فمنهم من يقول آانك وآأنت وهى التى يختار ابو عمرو وذلك لانهم يخففون الهمزة كما يخفف بنو تميم(39) فى اجتماع الهمزتين فكرهوا التقاء الهمزة والذى هو بين بين فأدخلوا الالف كما أدخلته بنو تميم فى التخفيف . ومنهم من يقول ان بنى تميم الذين يدخلون بين الهمزة وألف الاستفهام ألفا »

وهل بعد هذا الوضوح يبقى فينا من ينكر ابدال الهمزة الفا أو ادخال الالف بينها ؟

وكيف جاز للزمخشرى ، وهو النحوى المشهور ، واللغوى المبدع أن

---

(37) وطبعا يبدلونها ألفا فى « أأنذرتهم » ما دامت مفتوحة وما قبلها مفتوح .

(38) الكتاب ، الجزء الثانى ، صفحة 168 . السطر التاسع .

(39) أنظر خصائص لهجة بنى تميم فى بحثى المنشور بمجلة دعوة الحق ، العدد التاسع من السنة الرابعة عشرة ابتداء من الصفحة 29 .

يغفل عن هذه الحقائق ؟

بل اننى أحب أن أزيد فأقول ان سبويه لم يكتف بهذا البيان الواضح فأكد حاصرا الكلام على مثل اللفظة التى تهمنا ، فقال (40) :

« واعلم ان الهمزتين اذا التقتا في كلمة واحدة لم يكن بد من بدل الآخرة » .

ولكن ما قول قرائنا المغاربة في قراءة هذه اللفظة بعد أن عرفنا نظر قراء الاندلس ؟

ان أحسن من يمثل علماء القراءات القرآنية فى المغرب هو الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن القاضى(41) لانه استطاع ان يجمع في مؤلفاته القرآنية الكثيرة اقوال من سبقوه(42) من العلماء . قال عن قراءة «أأنذرتهم» فى مؤلفه « بيان الخلاف والتشهير وما وقع فى الحرز من الزيادات على التيسير (43) » : « أأنذرتهم وبابه الاخذ لورش بابدال الثانية حرف مد وليس مشبعا لاجل السكون في موضعين» ثم قال بعد ذلك : « والبدل رواية المصريين واليه أشار فى الحرز بقوله : « وقل ألفا عن أهل مصر تبدلت ،

---

(40) الكتاب الجزء الثانى ، صفحة 168 .

(41) الشيخ ابو زيد عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن القاضى ازداد سنة 999 وتوفى سنة 1082 . أنظر ترجمته فى كتاب « صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادى عشر لمحمد الصغير بن محمد بن عبد الله الافرانى المراكشى . صفحة 168 من الطبعة الحجرية الفاسية . بدون تاريخ .

(42) أنظر بحث الراجى التهامى الهاشمى « مؤلفات ابن القاضى » المنشور فى مجلة « الثقافة المغربية » العدد الرابع ، الصادر فى صفر الخير 1391 الموافق ابريل 1971 ابتداء من الصفحة 157 .

(43) توجد نسخ من هذا المؤلف فى الخزانة العامة بتطوان تحت الارقام الاتية 560 و 403 و 188 .

لورش(44) . وقال في الدرر(45) :

لكن في المفتوحتين أبدلت عن أهل مصر ألفا ومكنت(46).

قال في الاقتصاد(47) : « والبدل رواية اكثر المصريين » . وقال في ارشاد المتمسكين : « وهو قول شيوخ المصريين ، وبه قرأت عليهم وبه عبر الادفوني في كتاب الابانة(48) . وقال في الموجز : « وقال اصحاب ابي يعقوب عنه يبدلها ألفا ، ونحوه في التلخيص(49) » . وقال في ايجاز البيان(50) : « وهو الموجود في عامة المصريين لانهم يشبعون المد في ذلك . وقال في جامع البيان(51) : « روى ابو يعقوب عن ورش ابدال الثانية الفا محضة » . وقال بعض المحققين والاشهر عن ورش في طريق الائمة الثلاثة البدل(52) » .

---

(44) هذا هو البيت 186 من حرز الاماني في القراءات السبع للامام الشاطبي المتوفى سنة 590 هجرية ، وهو بتمامه .

وقل الفا عن أهل مصر تبدلت لورش وفي بغداد يروى مسهلا .

(45) الدرر اللوامع في أصل مقرأ الامام نافع . وهي قصيدة من الرجز الخفيف نظمهـا العلامة الشيخ القارئ ابو الحسن علي الرباطي المعروف بابن برى توفى سنة 731 هجرية الموافق 1331 م ودفن بمدينة تازة .

(46) أنظر شرح هذا البيت في « النجوم الطوالع» لابراهيم المارغني ، طبعة تونس عام 1354، الموافق 1935 ، صفحة 66 السطر التاسع عشر .

(47) كتاب الاقتصاد في القراءات السبع لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني . ذكره أبو بكر محمد بن خير بن محمد بن خليفة الاموي الاشبيلي في فهرسته ص 29 ، الطبعة الثانية بالقاهرة سنة 1382 موافق 1963 .

(48) الابانة عن معاني القراءات لابي محمد مكي بن ابي طالب . لاأعرف له وجود . ذكره ابن خير في فهرسته صفحة 41 . اما كتاب الابانة في الوقف والابتداء للخزاعي المتوفى سنة 408 هجرية ــ 1018 م فتوجد نسخة منه في القرويين تحت رقم ل 179/80 .

(49) لا أدري أي التلخيصين يقصد ، لانني لم استطع أن أطلع أي واحد منهما لاتحقق عن أيهما نقل العبارة اعلاه . ذلك ان هناك التلخيص لاصول قراءة نافع بن عبد الرحمن لمؤلفه أبي عمرو الداني وقد ذكر هذا المؤلف ابن خير في فهرسته في الصفحة 41 ، والتلخيص في القراءات الثمان عن القراء الثمانية المشهورين لابي معشر عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن علي بن محمد الطبري . ذكره ابن الجزري في النشر ، الجزء الاول ، صفحة 77 .

(50) لابي عمرو الداني ــ أنظر فهرسة ابن خير صفحتي 29 و 33 .

(51) جامع البيان في القراءات السبع لابي عمرو الداني ، ذكره أبن الجزري . أنظر النشر في القراءات العشر ، الجزء الاول ، صفحة 61 . المخطوطة رقم 3 بدار الكتب بالقاهرة .

(52) نقلت هذا النص من النسخة الخاصة من بيان الخلاف ... ابتداء من الصفحة الثامنة .

يتضح مما تقدم انه لم يكن هناك اى مبرر أمام الزمخشرى ليلحن من يبدل الهمزة الثانية ألفا في « أأنذرتهم » وما شاكلها من الالفاظ ، لهذا لم يكن امام ابى حيان الا ذلك الرد الذى اشفى غليله(53) .

ولقد ترك لنا مفسر مغربى مجهول مقدمة فى غاية الاهمية لتفسير سماه بـ « كتاب المبانى فى نظم المعانى » ضمنها معلومات جليلة من بينها فوائـد كثيرة حول قراءة « أأنذرتهم(54)» لو اطلع عليها الزمخشرى لما قال ما قال .

كما انه لو اطلع على التخريجات الرائعة التى قدمها لنا الامام ابن خالويه(55) فى كتابه الحجة فى القراءات السبع(56) لأحجم عما قال .

2 – قال الزمخشرى فى قراءة يزيد بن قطيب لكلمة « أظلم » الموجودة في قوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شيء قدير(57) » : « وأظلم يحتمل أن يكون متعد وهو الظاهر ، وان يكون متعديا منقولا من ظلم الليل ، وتشهد له قراءة يزيد بن قطب : أظلم على ما لم يسم فاعله » ثم استشهد لتعزيز ما ذهب اليه ببيت لحبيب بن أوس ثم لما رأى أن هذا شاهد لا يعتز به ، قال : « وهو وان كان محدثا لا يستشهد

---

(53) اما عن كيفية كتابتهما فان الرجوع الى كتاب المحكم فى نقط المصاحف لابى عمرو بن سعيد الدانى ص 94 من طبعة دمشق 1379/1960 ـ بتحقيق الدكتور عزة حسـن يفيد جـــدا .

(54) أنظر هذه الفوائد المتعلقة بقراءة « آأنذرتهم » فى المقدمة المشار اليها أعلاه ، ابتداء من آخر صفحة 155 ـ تحقيق المستشرق Arthur Jeffery

(55) توفى سنة 370 هجرية – أنظر ترجمته فى البغية الجزء الاول ـ صفحة 529 ـ ومعجم الادباء الجزء التاسع صفحة 200 .

(56) صفحة 42 السطر الثالث تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم طبعة بيروت سنة 1971 .

(57) السورة الثانية ، البقرة الآية 20 .

بشعره في اللغة ، فهو من علماء اللغة ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه(58)».

وبما أن هذا التخريج لايعد وان يكون اجتهادا من الزمخشري ، لا يخطىء فيه قارئا ، وانما يحاول تبرير قراءة لا يقول عنها ادنى سوء ، خلافا لما فعل في التخريج الاول ، فان اباحيان اجابه بلطف ، وجاد له بالتى هى احسن . وبعد أن أورد كلامه برمته قال(59) : « وله عندى تخريج غير ما ذكر الزمخشري ، وهو أن يكون أظلم غير متعد بنفسه لمفعول ، ولكنه يتعدى بحرف جر . الا ترى كيف عدى أظلم الى المجرور بعلى . فعلى هذا يكون الذى قام مقام الفاعل أو حذف هو الجار والمجرور فيكون في موضع رفع ..» وبعد كلام طويل يختم اعتراضه بقوله : « واما ما وقع فى كلام حبيب فلا يستشهد به ، وقد نقد على أبى على الفارسى الاستشهاد بقول حبيب :

من كان مرعى عزمه وهمومه   روض الاماني لم يزل مهزولا

وكيف يستشهد بكلام من هو مولد وقد صنف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره » .

د . الراجى التهامى الهاشمى

---

(58) الكشاف الجزء الاول ، آخر صفحة 65 وبداية صفحة 66 .

(59) البحر المحيط الجزء الاول ، صفحة 91 ، السطر الثانى .

ابو على الحسن اليوسى

بقلم : محمد الامرى

نسبه ومولده :

ينسب الى قبيلة آيت يوسى من قبائل البربر ، وولد سنة 1040 هـ .

نشأته ودراسته :

يغلب على الظن نه قضى نشأته الاولى فى قبيلته ، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم . ثم انتقل الى أماكن مختلفة فى طلب العلم ، حيث قصد سجلماسة ، ثم درعة ، وسوس ومراكش ، وما أن بلغ سن العشرين حتى قصد الزاوية الدلائية (سنة 1060 هـ) حيث استكمل هناك ثقافته ، وأخذ عن أعلام الزاوية المذكورة أمثال : محمد المرابط ، ومحمد بن عبد الرحمن ، وأبى عمر ابن محمد بن أبى بكر الدلائى وغيرهم ، وقد تزوج هناك وانتصب للتدريس . حيث استفاد من علمه الغزير جمهور من الطلبة ينتمى الى جميع انحاء البلاد .

مكانته العلمية :

يحكى عن نفسه فى الفهرست « كانت قراءتى كلها أو جلها فتحا ربانيا ، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأذنى سماع ينفعنى الله ، فقد اسمع بعض الكتاب فيفتح الله على فى جمعه فتحا ظاهرا ،

وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه
ورب كتاب لم اسمعه أصلا غير أن
سماع البعض فى كل فن صار مبدأ
للفتح وتتميما لحكمة الله فى سنة
الاخذ عن المشاييخ » من ذلك أيضا
أن أستاذه محمد المرابط الف كتاب
فى الوعظ ، فقرظه المقرظون وأبى
اليوسى الا أن يشارك هؤلاء فى
تقريظ مؤلف الشيخ . فوقع فيما
كتب ـ ولا نعلم اشعر هو أم نثر ـ
لفظ القطائف واللطائف ، فنقده
الشيخ وقال : « لا نعرف القطائف
الا هذه المفروشات» ـ فأجابه اليوسى
بانها جمع قطيفة بمعنى مقطوفة ،
فقال له الشيخ : « هو صحيح فى
اللغة ولكن الادباء لهم الاختيار ،
وعندهم الفاظ يستعملونها مخصوصة،
فلا يرتكب عندهم كل ما يقع فى
اللغة» فرد عليه اليوسى : « هذا
أبو محمد الحريرى يقول فى مقاماته:

فلا تعذلونى بعدما قد شرحته
على أن منعتم فى اقتطاف القطائف

فتلون وجه الشيخ ، ولما يراجع
اليوسى بكلمة .

ويقول عنه صاحب الاستقصا :
« كان رضى الله عنه غزالى وقته
علما تحقيقا وزهدا وورعا » وفى
مكان ءاخر يقول : « كان رضى الله
عنه متضلعا من العلوم العقلية
والنقلية حتى قال فى تأليفه المسمى:
« بالقول النصل فى الفرق بين
الخاصة والفصل » . انه بلغ درجة
الشيخ سعد الدين التفتازانى والسيد
الجرجانى واضرابهما : وقال اليوسى
حينما سأله احد الطلبة بحلقة درسه:
« اسمع ما لا تسمعه من انسان ،
ولا تجد محررا فى ديوان ولا تراه
مسطرا ببنان ، وانما هو من مواهب
الرحمن » وهذا منتهى الثقة بالنفس،
والافتخار بما اسبغ الله عليه من نعم
وذكروا انه تصدى لتدريس التفسير
بمراكش بجامع الاشراف . وقضى
فى تفسير الفاتحة ما يقرب من
ثلاثة اشهر ، وفى كل يوم يبدى
اسلوبا غريبا وتحقيقا عجيبا ، على
حد قول صاحب الاستقصا ،

فاندهش الناس لغزارة مادته مع انه لم يكن يرجع الى مصدر للتحضير . « مع انه ربما بات في ضريح بعض الاولياء والناس معه ، فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا »

وقد كان الامام ابو سالم العياشى يقول :

من فاته الحسن البصرى يصحبه
فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

ويختم صاحب الاستقصا كلامه عنه بقوله : « وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين ، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين ، حتى كان بعض الشيوخ يقول : هو المجرد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته وعابد زمانه رحمه الله ورضى عنه » ويقول عنه شيخه المرابط عندما اجازه : « الصدر الرئيس ، فارس الاملاء والتدريس ، شيخ الجماعة بالديار البكرية ، والحضرة الدلائية ، ذو التدقيق المعهود ، أبو الحسن بن مسعود ، صاحب النباهة الشامخة ، والنزاهة الباذخة ، والجلالة العليا ، والهمة التى نيطت بالثريا » .

نبذة من حياته :

لازم الزاوية الدلائية مدة عشرين سنة بعد أن قصدها وهو ابن العشرين ولم يغادر هذه الزاوية الا بعد القضاء عليها من طرف المولى الرشيد ، وكان عليه ان يقصد فاسا بأمر من السلطان المذكور ، ووقع عليه اقبال كبير من طرف الطلبة والاساتذة على السواء ، وتأخر عن حضور مجالسه العلمية بعض المنافسين من حساده وفى ذلك يقول :

لو أنصفوا لصبوا الي كما صبا
راعى سنين الى الغمام الصيب

ثم انتقل الى مراكش بعد أن مكث بفاس ما يقرب من عشر سنوات

حيث اقام ثلاث سنوات دأب فيها على التدريس بالمساجد ، ثم رجع حوالى سنة 1093 هـ الى بلاده بجبال الاطلس .

وقد كان اليوسى طيلة مقامه بفاس ومراكش محل اجلال من لدن السلطان الرشيد ، فقد كان يحضر مجالسه العلمية بالقرويين ، ويستدعيه الى قصره مع المقربين من خاصته ، وربما كان قصده من ذلك محو ما تركته فى نفسه الزاوية الدلائية من اثر بليغ لا ينسى ، وقد لامه بالفعل على ذلك ذات مرة : فأجابه اليوسى جواب من يريد التقية « لا ناقة لى فيها ولا جمل » وقد حظى بنفس المكانة عند السلطان المولى اسماعيل ، وكان من العلماء الذين بايعوه ، وكان يخلص له النصيحة مخاطبا اياه بالصراحة اللازمة ، منتقدا ما يدعو الى الانتقاد

وفـاتـه :

فى سنة 1101 زار مصر وأدى فريضة الحج ثم رجع الى قبيلته حيث وافته المنية سنة 1102 هـ بتامزيزت ناحية صفرو وهناك دفن

مـؤلفاتـه :

ذكر المستشرق الفرنسى جاك بيرك فى كتابه عن اليوسى ثلاثة وثلاثين كتابا . وأضاف اليها الاستاذ حجى فى كتابه « الزاوية الدلائية » اربعة عشر كتابا . نقتصر منها على ما يتعلق بالادب وفنونه(1) : « زهر الاكم فى الامثال والحكم(2) ، شرح تلخيص المفتاح للقزوينى فى البلاغة(3) ديوان شعرى جمعه ولده بعد وفاته(4) رائية فى رثاء الزاوية الدلائية وعدد ابياتها 162 بيتا (5) دالية فى مدح الشيخ محمد بن ناصر الدرعى . معارضا بها دالية البويصرى فى مدح ابى الحسن الشاذلى (6) نيل الامانى فى شرح التهانى ، وهو شرح للدالية الآنفة الذكر (7) شعر فى مدح خير البرية(8) شعر فى رثاء عبد القادر الفاسى (9)

القانـون (I0) المحاضـرات (II) الفهرست (I2) رسالة فى وصـل الشعر الى غير ذلك ، فليطلع على باقى تآليفه فى الزاوية الدلائية .

مكانته الادبية :

يقول عن نفسه انه لو شاء الا يتكلم الا شعرا لفعل ، ويقول عنـه صاحب الاستقصا : وكان الشعـر عنده اسهل من النفس ، وشعـره كله حكم وامثال كشعـر العـرب القدماء . والواقع اننا من خلال ما اطلعنا عليه من شعره لا نملك الا أن نعده من فحول شعراء المغرب متانة، بناء ، ووضوح مقصد ، وخبرة عالية باختيار انسب الالفاظ لما يقتضيه المقام ، وهو فى ذلك لا يقل عن ابن الخطيب ومن فى مستواه ولا عجب فى ذلك ، فقد كان الى جانب تبحره فى العلوم السائدة على عهده ذا احتفال بفن الادب ، فـقد كان يحفظ مقامات الحريرى ، كما أنه لا شك كان يحفظ مقامات بديع الزمان الحمدانى ، بالاضافة الى انه كـان يستحضر دواوين فطاحـل الشعراء كالمتنبى وابى تمام والمعرى وغيرهم كما يذكر ذلك الاستاذ كنون فـى كتابه النـبوغ المغربى ، كـما أن رسائله المختلفة لحكام ومشاهيـر العلماء فى عصره تنبىء عن بلاغة فى الكلام ، وجودة فى الاسلوب وقوة حجة وسعة اطلاع نلمس ذلك مـن خلال رسائله الى المولى اسماعيل ، والاخوين القادريين العربى وعبـد السلام والمهدى الفاسى ، ورسالته الى الصوفيين الحاج على وابى القاسم بن معمر ، ورسالته الى المجاهدين فى ثغر اسفى الى غير ذلك .

نماذج من شعره : يقول من احدى قصائده الطويلة فى الحكم وعـزة النفس ومن خلالها نطلع على فلسفته الاخلاقية فى معاشرة الناس ومعاملتهم وقد كان بالفعل لا ينحـرف عـن تلك الفلسفة ، يقول :

انا أنـــاس لســت تبصرنا
نتحين الطعــم التى تـــزرى

يعرى الفتى ويجوع وهويـرى
متجمـــلا بالصبر والبشـــر

والحـــرة الشــماء ربتمـــا
جاءت ولم ترضع على اجـــر

الى ان يقول :

والحر ليس حياتـــه بســوى
عز الجناب ورفعـة القـــدر

ومنها منتقد المجتمع :

والناس كالغوغاء هائمـــة
لو كان يبلو الناس ذو خبـر

والمـــرء كل المـــرء بينهـــم
ذو الملبس الزاهى وذو الوفر

لا ينظـرون الى الوفـــاء ولا
فضل الذكاء وثاقب الفكـــر

فتوح فى الناس الوفـــى اذا
عاشرتهم وحذار ذا الغـــدر

واسبـــرهم قبـل الاخـاء ولا
تغترفى الاخـوان بالسبـــر

وقال من قصيدة اخرى وقـد هاجت ذكراه عن الزاوية الدلائية :

الا ليت شعرى هل أرى من ثنية
عضاها كمصفوف الكتائب تشرف

وهل اردن من سلسبيل موارد
هناك لمعسول المباسم ترشـف

وهل أرين مضنى الـدلاء عشية
كـأن بقايـاهـا بنـاء مغـوف

ذكـرتهم وهـنـا وانى لمدلـج
باجواز اقطار الصحارى اطـوف

فقلت وقلبى ضمن شجون لوعة
وجفنى بمنثور الجمان يكفكـف

ادارا سقيت الويل غـير مبـرح
ولا برحت عنك الحوادث تصرف

لقد هجت فى القلب العميد صبابة
تكاد لها صم الجبال تعصـف

ووفاء منه لهـذه الزاويـة التى منحته الـشيء الكثيـر ، افردهـا بقصيدة طويلة ، هى تلك الرائية التى تنضح وفاء ولوعة وحسرة وفى منتهى الاحساس الصادق العميـق ولنسق منها الابيات التالية :

اكلف جفن العين ان ينثر الدرا
فيأبى ويعتاض العقيق بها حمـرا

واسأله أن يكتم الوجد ساعـة
فيفشى وان اللوم آونة اغـرى

وقد كنت استصحيه حتى توقدت
جدا الوجد فاستسقيته يطفي‌الجمرا

على ان دمع العين فضل حشاشة
تذاب فماذا ينفع الدمع ان يجرى

وكانت شرور الهم عنى عوازبـا
وبعد النوى اضحت مراتعها الصدرا

ثم يقول متأسيا ومعددا النكبات التى حلت بكثير من العظام ذاكرا البعض منهم ومن بينهم المعتمد بن عباد :

هو الدهر لا يبقى عـلى متخشـع
ذليـل ولا ذى نخوة مزده كبرا

حسام اذا ما صمم الدهر فى امرىء
غدا دمه بين الورى خضرا مضرا

ويختم القصيدة بهذين البيتين

ومن يدخر تقـوى الاله وذكره
على كل‌حال يحمد السعى والذخرا

ومن يغن بالمولى فلن يعدم الغنى
اذا لم يجد يوما لجينا ولا نضرا !

وقد اورد القصيدة كلها الاستاذ عبد الله كنون فى الجزء الثانى من النبوغ المغربى فلتراجع هناك .

نموذج من نثره :

نسوق هنا نتفا من الرسالة التى بعث بها الى المولى اسماعيل بعد أن

امر بنزع سلاح القبائل وخيولها ، قال بعد الديباجة : فكتبنا هذه البطاقة ، وهي في الوقت منتهى الطاقة ، وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوف الى الموعظة والنصح والرغبة في استفتاح ابواب الربح والنجاح ، فاردنا ان نرسل الى سيدنا ما ان وفق الى النهوض به رجونا اليه ربح الدنيا والاخرة ، والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وان لم نكن اهلا لان نعظ ان يكون سيدنا اهلا لان يتعظ ، وان يحتمي من جميع المذام ويحتفظ ،
فليعلم سيدنا ان الارض وما فيها ملك لله تعالى لاشريك له ، والناس عبيد له سبحانه واماء له وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليه بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح ، فهو خليفة الله في ارضه ، وظل الله على عبيده ، وله الدرجات العالية عند الله تعالى ، وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ، ومتسلط ومتكبر في الارض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه . كيف يفعل يوم يتمكن منه ثم نقول : ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها البطاقة . ولنقتصر منها على ثلاثة هي امهاتها :

الاول : جمع المال في حق وتفريقه في حق .

الثاني : اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما يحتاج اليه من عدة وعدد .

الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم وفي معناه رد يد عادية عليهم منهم ومن غيرهم وهذه الثلاث كلها اختلت في دولة سيدنا ، فوجب علينا تنبيهه ليلا يعتذر بعدم الاطلاع او الغفلة ، فان فعل وتنبه فقد فاز وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح

اهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة والا فقد ادينا الذى علينا .

ثم يشرع فى تحليل كل واحدة على حدة وفى نهاية تحليل النقطة الاولى يقول : « فلينظر سيدنا فان جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية ، فأكلوا اللحم وشربوا الدم ، وامتشوا العظم ، وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا اما الدنيا فقد اخذوها ، واما الدين فقد فتنوهم عنه ، وهذا شىء شاهدناه لاشىء ظنناه »

ومما جاء فى تحليله للنقطةالثانية قوله : « وقد حضرت بمدينةتطوان ايام مولانا الرشيد رحمه الله تعالى اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة وقد بلغنى اليوم انهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على ارجلهم بايديهم العصى والمقالع ، وهذا وهن فى الدين ، وضرر على المسلمين وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة .. وتكليفهم الحركات ، واعطاء العدة كسائر الناس ، فعلى سيدنا ان يتفقد السواحل كلها من القليعة الى ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد ان يحسن اليهم ، ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون اليه ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيهم من يوليه تلك النواحى ان يكون اشد الناس رغبة فى الجهاد ، ونجدة فى المضايق وغيرة على الاسلام واهله ، ولا يولى من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكة والله الموفق » .

ويقول عن النقطة الثالثة :

« واما الامر الثالث فقد اختل ايضا ، لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس وهم العمال فى البلدان وخدامهم المشتغلون بظلم الناس ، فكيف يزيل الظلم من يفعل ؟ ومن ذهب يشتكى سبقوه الى الباب فزادوا عليه . فلا يقدر احد ان يشتكى

فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب ، وليجتهد في العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا » . وفي الرسالة استشهادات بالآيات القرآنية وتاريخ الاسلام ، واقوال حكماء اليونان ومن ذلك مثلا قوله : «الملك بناء والجند اساسه ، واذا ضعف الاساس سقط البناء فلا سلطان الا بجند ، ولا جند الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بالعدل ، فالعدل اساس الجميع » .

وهذه الرسالة التي ساقها بتمامها صاحب الجيش ذات قيمة اجتماعية وسياسية وثقافية وادبية فمن الناحية الاجتماعية اهتمام العلماء بمشاكل الناس ودفاعهم عنها ومن الناحية السياسية اقدام اليوسي على مراسلة السلطان في موضوع يمس بالمواطنين باسلوب ان كان يتسم بمنتهى الصراحة ، فهو في نفس الوقت لا يجافي اللياقة ومراعاة مقتضى الحال ، وعن الناحية الثقافية حيث نستطيع من خلال الرسالة ان نتعرف على منابع الثقافة على ذلك العهد فهي ثقافة تطبعها الروح الاسلامية ، كتابا وسنة وتاريخا ، ولا تخلو من نفحات يونانية وغيرها ولم يتطرق اليها بعد ما ينبىء عن أي احتكاك ثقافي خارجي ، تبقى الناحية الادبية وهي التي تهمنا هنا بالدرجة الاولى والواقع ان الناقد الادبي يندهش لاسلوب الرسالة ، فهو من جهة لا يتزم السجع الا ما جاء عفوا على عكس ما نلاحظه عند غيره ممن عاصروه ولاسيما في مناسبة كهذه ، كما يثير اعجابنا هذا التسلسل المنطقي للافكار ، ثم هذه الصياغة المتينة في غير ما تقعر ولا تعمل ، بل اننا لا نعدم اجتهادا في التجديد وعدم التقليد في بعض المصطلحات او القوالب الاسلوبية ان صح التعبير ، فهو يعدل عن لفظة « عمران » التي استعملها ابن خلدون وغيره ، ليستخدم لفظة

« عمارة » وهو ايضا يقتصد فى الفاظ الاطراء والتبجيل .

نخلص من هذا الى القول بـأن اليوسى من اولئك القلائل الذيـن منحوا موهبة الشعر والنثر معا ، ومن اولئك الذين لم يؤثر اطلاعهم الواسع فى العلوم الدينية عـلى ملكتهم الفنية فى الشعر والنثر .

محمد الامرى

اهم مصادر البحث

المحاضرات : لليوسى

الترجمانة الكبرى : للزيانى

الجيـش : لاكنسوس

الاستقصا ج 7 : للناصرى

النبوغ المغربى ج I : للاستاذ عبد الله كنون

النبوغ المغربى ج 2 : للاستاذ عبد الله كنون

الاتحاق ج 3 : للمؤرخ عبد الرحمن بزيـدان

اليوسى المغربى : للدكتور نقـولازيـادة .

الزاوية الدلائية : للاستاذ محمـد حجـى .

دراسة في مصادر التاريخ المغربي

للدكتور عبد الكريم كريـم

ان العثور عـلى جمجمة انسان الرباط فى يبراير 1939 التى أثبتت الدراسات العلمية أنها تعود الى نصف مليون سنة تؤكد بأن الحياة البشرية قد ظهرت بالمغرب منذ أن كان الانسان لا يزال فى مرحلة جمع الطعام فى العصر الحجرى القديم . وقد تطور الانسان المغربى فى المراحل المختلفة الى أن بلغ مرحلة انتاج الطعام فى العصر الحجرى الحديث ، كما استعمل بدوره المعادن المختلفة .

وتعتبر الحفريات الأثرية التى أجريت فى المراكز المتعددة من بلاد المغرب ، مصدرنا الاول فى التعرف على أنماط الحياة المتنوعة التى عرفها المغرب القديم . وقد حصل تطور هام عندما أخذت أقوام من الشرق تهاجر الى المغرب وتتفاعل مع سكانه . اذ ازدادت معلوماتنا عن أحوال المغـرب الطبيعية والبشرية لتزايد الاخبار التى دونتها هذه الاقوام عن المغـــرب وسكـانــه .

لقد تفاعل سكان المغرب القدماء مع الاقوام المختلفة التى اتصلت بهم وتبادلوا واياها التأثيرات بطريقة أو أخرى ، ومن أبرز تلك الاقوام : الفينيقيون

والاغريق والرومان والوندال والبيزنطيون ، واذا كانت الاتصالات الاولى قد إتسمت بنوع من السلم وحسن التعامل ، فان تزايد أطماع الدول الكبرى وحرصها على الاستئثار بثروات البلاد قد غير من طبيعة التعامل مع السكان المغاربة ، ودفع هذه الدول الى محاربة بعضها البعض ، فدخلت بسبب ذلك في سلسلة من الحروب المستمرة دامت عدة قرون . ورغم أن هذه الحروب قد اتخذت أسماء مختلفة تبعا للأقوام التي خاضتها فان الاهداف التى كانت تسعى اليها ظلت واحدة فى كل العصور .

ونتيجة لذلك ضاع القسم الاعظم من مصادر تاريخنا فى العصور القديمة وما سلم منها وصل الينا مبثورا ومشوها بصورة تجعل من الصعب الركون اليه والاعتماد عليه .

والى جانب الحروب الطويلة هناك عامل آخر لا يقل عنها أهمية ، وهو أن شمال افريقيا والمغرب لم تكن مركز الثقل السياسى خلال كل عصور التاريخ القديم بقدر ما كانت خاضعة للقوى السياسية المتنازعة ان لم نقل بأن التنافس للسيطرة عليها كان من العوامل الاساسية التى عرفها الحوض الغربى للبحر المتوسط وذلك لأهمية شواطئها المتوسطية والاطلسية ولأنها الباب الموصل الى بلاد السودان وغربى افريقيا ، بالاضافة الى خصوبة أراضيها وتنوع محصولاتها الزراعية .

ولما كانت دراستنا تهتم بابراز أهم المصادر المتعلقة بعصور التاريخ المغربى فاننا نشير الى أن معلوماتنا عن العصور القديمة لا تتعدى بعض الاخبار المتفرقة التى وردت فى بعض مصادر التاريخ القديم ، وذلك للأسباب السالفة الذكر وأهمها قيام الحروب والمنازعات بين الدول الكبرى : بين الفينيقيين والاغريق ، وبين القرطاجيين والرومان ، وبين الرومان والواندال

والبيزنطيين ، وأخيرا بين البيزنطيين والعرب المسلمين .

ومن أهم المصادر المدونة القديمة التى اهتمت بتاريخ المغرب القديم لسبب من الاسباب : مؤلفات المؤرخين الاغريق التى يرجع أقدمها الى القرن الخامس قبل الميلاد .

فهناك وصف عام للمناطق الشمالية والغربية من بلاد المغرب ورد في الاخبار التى دونت عن رحلة القائد القرطاجى هانون عند مطلع القرن الخامس قبل الميلاد ، ففى هذا الوصف يقف الباحث على دراسة مجملة لبعض المظاهر الطبيعية للمغرب القديم ، كالاراضى السهلية الواسعة ، والمرتفعات المكسوة بالغابات وكذا وصف الانهار والمستنقعات وتتضمن الرحلة ايضا وصف أنماط مختلفة من حياة السكن كاهتمامهم برعى الماشية وحسن تعاملهم مع الاجانب، وقد اهتم المؤرخ الاغريقى هيرودوت الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد بأخبار المغرب فى كتابه « التاريخ العام » لعدة عوامل أهمها الصراع الذى حصل بين الاغريق والقرطاجيين حول التجارة مع شمال افريقيا والمغرب ، ومن المعلوم أن القرطاجيين قد احتكروا تجارة الحوض الغربى للمتوسط ومنعوا غيرهم من المتاجرة مع سكانه مما أدى الى صراع مسلح بين الدولتين . ولشهرة المغرب التجارية ، دون المؤرخ هيرودوت بعض الاحوال التجارية في المغرب وخاصة طريقة التعامل والمبادلات بين المغاربة والاقوام الخارجية ، مما لم يوجد له مثيل عند غيره .

وهناك مؤرخ اغريقى آخر هو بوليبيوس الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد عاصر الحروب البونيكية التى قامت بين الرومان والقرطاجيين والتى انتهت بخراب قرطاجة عام 146 قم .

لقد زار المؤرخ بوليبيوس شمال افريقيا بعد الاحتلال الروماني ودون بعض المعلومات الهامة عن المغرب القديم .

وأثناء الحكم الروماني لشمال افريقيا ازداد اهتمام الرومان بالمغرب لاستراتيجية سواحله ولخصوبة أراضيه ، الى حد أن روما العاصمة قد أصبحت تعتمد على ثلاث مزروعات مغربية أساسية لغذائها :

القمح لصنع الخبز ، والكرمة لصناعة الخمر ، والزيتون لاستخراج الزيت الذى يستعمل للطعام وللانارة .

ومن المؤرخين الرومان الذين تحدثوا عن المغرب سالوست صديق يوليوس قيصر ثم تيت ـ ليف الذى رافق الحملات العسكرية التى قام بها الامبراطور أوغسطوس فى شمال افريقيا .

وخلال القرن السادس للميلاد تمكن الامبراطور البيزنطى جوستينيان من احياء الامبراطورية الرومانية فأصبح البحر المتوسط شبه بحرية بزنطية وكانت شمال افريقيا والمغرب من المناطق التى دانت بالطاعة للبيزنطيين .

وفى الكتاب التاريخى العام الذى ألفه المؤرخ البزنطى بروكوب جليس الامبراطور جوستينيان الخاص ، نجد الكثير عن تاريخ المغرب أيام الاحتلال البزنطى فقد تحدث فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ الحروب » عن المغرب وعدد المظاهر المختلفة للاوضاع التى كان عليها مما يمكن اعتباره وصفا عاما للمغرب قبيل الفتح العربى الاسلامى .

★ ★ ★

أبدى المسلمون منذ الصدر الاول للاسلام ، اهتماما خاصا بالتدوين : دونوا أولا سور القرءان الكريم وآياته ، وهؤلاء هم كتاب الوحى ، ثم دونوا

ثانيا أحديث الرسول عليه السلام وأخباره وسيرته وهؤلاء هم كتاب السيرة وعلماء الحديث .

والذى يهمنا نحن بصفة خاصة هو التأكيد على أن التدوين عند المسلمين قد ظهر منذ الايام الاولى لظهور الاسلام ، روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : (ما من أحد من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الا لو شئت لقلت أنا كثر منه حديثا الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه أكثر منى لأنه كان يكتب وكنت أنا لا أكتب) .

وعندما انطلقت الفتوحات الاسلامية فى الشام والعراق ومصر ، أخذ الولاة والقادة يوجهون الى الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة تقارير مختلفة عن عمليات الفتوح وعن طرق تنظيم الاقطار المفتوحة وكذا عن مختلف أوضاع الولاية السياسية والاجتماعية والاقتصادية واعتمادا على ما جاء فى (النجوم الزاهرة) ان القائد عمرو بن العاص قد كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر يصف أحوال البلاد ويتعرض الى الخطة السياسية التى سينهجها فى حكمه .

وبعد قيام الدولة الاموية ازدهرت حركة التدوين كما أكد المسعودى فى مروج الذهب ، فقد ذكر بأن الخليفة معاوية ابن ابى سفيان كان اذا صلى العشاء يأذن للخاصة وتحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب ومكائدها فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبين قد وكلوا بحفظها وقراءتها . ومن الذين دونوا فى التاريخ بتشجيع من الخليفة معاوية عبيد الجرهمى الذى ألف كتابا فى تاريخ الملوك القدماء ، ولاتزال حتى اليوم بعض الكراريس المخطوطة منه الى اليوم فى احدى خزائن حيدراباد فى الهند .

وهناك مؤلف آخر في التاريخ لوهب بن منبه حول تاريخ اليمن وقد أكد ابن خلكان في وفيات الاعيان أنه شاهد هذا الكتاب واطلع عليه وانه في مجلد واحد وأن دراسته مفيدة جدا .

وحسب ما أورده محمد كرد علي في خطط الشام فإن أول دار للكتب قد أنشئت في دمشق عاصمة الامويين أيام خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان له اهتمام كبير بالعلوم وتدوينها .

ومن جهة أخرى فان ظهور ديوان الانشاء في الدولة الاموية قد ساهم بدور عظيم في جمع المعلومات والاخبار المتعلقة بالفتوحات الاسلامية ، وبالامبراطورية العربية بوجه عام ، فقد كان من مهام هذا الديوان تنظيم مراسلات بين الخلفاء والولاة والاحتفاظ بنسخ خاصة منها وكذا تنظيم مراسلات الولاة والحكام مع الخلفاء فلم يعد هناك أى شك بأن المسلمين قد اهتموا بجمع المعلومات المختلفة وتدوينها على مختلف المستويات : كمسؤولين وقادة وكعلماء ومؤرخين باحثين بالاضافة الى أن عوامل دينية وسياسية قد دفعت الى التدوين في التاريخ كالاهتمام بمعرفة أسباب التنزيل ورواية الحديث والوقوف على مغازى الرسول عليه السلام وفتوحات الخلفاء الراشدين والامويين ثم الظروف التى فتحت خلالها الاقطار لتنظيم طرق التعامل مع أهاليها . ومن الاسباب التى شجعت على تدوين تشجيع الخلفاء والحكام خاصة بعد المنازعات السياسية والمذهبية ثم الرغبة العلمية الصرفة .

وعندما نتساءل عن أسباب ضياع ما دون خلال القرن الاول للهجرة ، نجد بأن الاضطرابات الداخلية التى عرفتها الدولة الاسلامية في المدينة أو في دمشق قد تسببت في ضياع معظم ما دون وجمع : فهناك الخلاف بين علي ومعاوية وهناك الصراع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ،

ثم الحروب بين الامويين والعباسيين .

لما كان موضوعنا يتعلق بدراسة مصادر التاريخ المغربي يهمنا أن نشير الى أن الفتح العربى المغربى قد لقى اهتماما خاصا من قبل المؤرخين فى الشرق الاسلامى ، باعتبار ان المغرب قد دان بالطاعة للفاتحين العرب ، ولان المغرب قد أصبح الجبهة الغربية للامبراطورية الاسلامية . بالاضافة الى أن الفتح الاسلامى للمغرب قد ترتبت عنه فتوحات عظيمة فى الجنوب الغربى من القارة الاوربية وخاصة فى الاندلس وجنوب فرنسا .

فمن هم المؤرخون المسلمون الاولون الذين دونوا اخبار المغرب وتناقلها عنهم الرواة فيما بعد ؟ والى أى حد استطاع هؤلاء المؤرخون ضبط المعلومات المختلفة التى توفرت لديهم باعتبارها من أقدم الاخبار التى حفظتها لنا الايام عن الفتح الاسلامى للمغرب ؟

يتبين من دراسة مصادر التاريخ الاسلامى التى اهتمت بتدوين أخبار المغرب منذ الفتوحات الاسلامية الاولى ، أن أقدم المعلومات التى وصلتنا ترجع الى العهد العباسي الاول ، وبالضبط الى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، وأن المؤرخين الذين عاشوا فى القرن الثالث للهجرة هم الذين حفظوا لنا بعض هذه المعلومات لضياع مصادرها .

وينطبق هذا الرأى على العالم المحدث والمؤرخ الكبير محمد بن عمر الواقدى الذى مات عام 207 هـ . فقد كان الواقدى من الاوائل الذين حاولوا تدوين تاريخ عام للفتوحات الاسلامية . الى أن معظم ما دون قد ضاع . وقد حفظ لنا المؤرخ محمد ابن يحيى المعروف بالبلاذرى الذى مات عام 279 هـ

فى كتابه (فتوح البلدان) بعض الاخبار نقلا عن الواقدى تتعلق بصفة خاصة بالفتح الاسلامى للمغرب وبلاد الاندلس كما نقل المؤرخ محمد بن جرير الطبرى المتوفى عام 310 هـ كتابه (تاريخ الامم والملوك) معلوماته المتعلقة بالغرب الاسلامى عن الواقدى أيضا .

فما هى المعلومات التاريخية التى دونها الواقدى عن المغرب وتناقلها الرواة فيما بعد ؟

جاء فى كتاب (فتوح البلدان) للبلاذرى وصف عام ومختصر لاعمال الفتوحات التى قام بها القائد موسى بن نصير فى بلاد المغرب لم تخرج فى مجموعها عن التعرض للناحيتين العسكرية والدينية : فتحت عنوان (فتح طنجة) ذكر ما يلى :

(قال الواقدى : وجه عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير مولى بنى أمية واليا على افريقيا ففتح طنجة ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها بالمسلمين وانتهت خيله الى سوس الادنى وبينه وبين سوس الاقصى نيف وعشرون يوما فأدوا اليه الطاعة ثم ولى على طارق بن زياد مولاه وانصرف الى قيروان افريقيا) .

وعن الناحية الدينية ذكر قوله : (ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولى المغرب اسماعيل ابن عبد الله بن أبى الهاجر فسار أحسن سيره ودعا البربر الى الاسلام وكتب اليهم عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم بعد الى ذلك فقرأها اسماعيل عليه فى النواحى فغلب الاسلام على المغرب) .

ولما كان فتح الاندلس مرتبطا بالفتح المغربى فان الواقدى قد أورد تحت عنوان : (فتح الاندلس) ما يلى :

(غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير الاندلسى وهو أول من غزاها وذلك سنة اثنين وتسعين فلقيه أليان وهو والى على مجاز الاندلس فآمنه طارق على أن حمله وأصحابه الى الاندلس فى السفن فلما صار اليها حاربه اهلها ففتحها وذلك سنة اثنين وتسعين) .

هذه أهم المعلومات التى دونها الواقدى ونقلها عنه كل من البلاذرى والطبرى لماذا اكتفى هؤلاء المؤرخون بتدوين أخبار مختصرة عن الفتوحات الاسلامية فى المغرب الاسلامى ـ وما هى الدوافع الحقيقية التى اجبرتهم على ذلك ؟

لقد كان المؤرخون الثلاثة من المقربين للخلفاء العباسيين هارون الرشيد والمامون والمعتصم والمتوكل ، وكانت بلاد المغرب الاسلامى قد خرجت عن طاعة الخلافة فى الشرق منذ أواخر العهد الاموى ، بل ولقد أقام عدد من الامراء الفارين من الاضطهاد العباسى امارات اثبتت مع الايام وجودها ، وأشهرها : امارة الامويين بالاندلس التى أقامها الامير عبد الرحمن الداخل والامارة الخارجة التى أسسها فى تاهرت بالجزائر الامير عبد الرحمان بن رستم ، ثم الامارة العلوية الهاشمية التى أقامها فى المغرب المولى ادريس أحد قادة الحركة العلوية فى الشرق الاسلامى ، بالاضافة الى أن فتح المغرب والاندلس قد تم فى عهد الدولة الاموية وقد أدرك هؤلاء المؤرخون أن الحرص على تدوين اخبار الفتوحات الاسلامية فى المغرب الاسلامى والوقوف عندها طويلا ، معناه الاشادة بجهود الامويين وابراز مدى حرصهم على القيام

بالفتوحات في الاقطار النائية من العالم ، في الوقت الذى عجز العباسيون عن الحاق هذه الاقطار بباقي الامبراطورية الاسلامية ، لذا فقد حرصوا على اختصار المعلومات المتعلقة بالفتح الاسلامى بالمغرب والاندلس ولم يولوا اى اهتمام بأحداث الغرب الاسلامى خلال القرنين الثانى والثالث للهجرة ، وعلى سبيل المثـــال :

لم يزد الواقدى في اخباره التى رواها عن فتح المغرب والاندلس عن عشرة أسطر تقريبا في حين أن الطبرى قد اكتفى بالاخبار عن فتح الاندلس فى سطر واحد : (وفيها غزا موسى بن نصير الأندلس ففتح على يديه أيضا مدائن وحصون) . ولم يزد فى أخباره عن تأسيس الامارة الاموية بالاندلس على سطرين (وفى هذه السنة سار عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام ابن عبد الملك ابن مروان الى الاندلس فملكه أهلها أمرهم فولده ولاتها الى اليوم) .

ونشير من جهة أخرى الى أن سعى الواقدى لارضاء العباسيين وحرصه على محاباتهم قد دفع بالبعض من معاصريه الى الطعن فى رواياته والتشكيك في صحتها .

على أن ضياع الوثائق والمصادر وضعف الاتصال بيـن الامبراطورية العباسية وامارات الغرب الاسلامى ، يمكن اعتباره من العوامـل الاساسيـة التى زادت من غموض اخبار المغرب الاسلامى لدى هؤلاء المؤرخين .

ولقد تنبه المؤرخ على ابن أبى الكرم المعروف بابن الاثير المتوفى عام 630 هـ الى ضعف المادة التاريخية المتعلقة بالعالم الاسـلامى المغـربى التـى تضمنها كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى) فذكر ما يلى : (هذا جميعه ذكره

أبو جعفر فى فتح الاندلس ويمثل ذلك الاقليم العظيم والفتح المبين لا يختصر فيه على هذا القدر) ثم اكد حرصه على تلافى هذا النقص (وأنا أذكر فتحها على وجه أتم من هذا انشاء الله تعالى من صتانيف أهلها اذ هم أعلم ببلادهم).

★ ★ ★

من المصادر التاريخية الاسلامية التى نعتمد عليها كثيرا فى دراستنا للفتح الاسلامى فى المغرب وفى التعرف على بعض اوضاع الغرب الاسلامى خلال القرن الثانى والنصف الاول من القرن الثالث للهجرة ، كتاب (فتوح مصر والمغرب) للمؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن عبد الحكم الذى توفى عام 257 هـ .

فمن مميزات هذا الكتاب التاريخى ، انه من المصادر الاسلامية القليلة التى حفظتها لنا الايام ، وان مؤلفه ابن عبد الحكم قد رجع الى مصادر تاريخية مفقودة ترجع الى القرنين الاول والثانى للهجرة ، كما نقل روايات واخبارا عن معاصرين له تعرف عليهم بمصر ، بحكم ان مصر كانت بباب الشرق الاسلامى ، وان قوافل الحجاج المغاربة وطلاب العلم كانت تمر بها وتقضى بها بعض الوقت ، مما اتاح لابن عبد الحكم الوقوف على الكثير من اخبار المغرب والاندلس والتعرف على تفاصيلها .

ومن دراستنا لكتاب (فتوح مصر والمغرب) نقف على الحقائق التاريخية التالية :

ان الانطلاقة الكبرى للفتوحات الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين قد سبقتها محاولات سلمية قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وجه الى مشاهير الملوك المجاورين للجزيرة العربية سفارات حلت كل منها كتابا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم فيه الى الدخول فى الاسلام .

وبالنسبة للقارة الافريقية اورد ابن عبد الحكم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم الاقباط فى مصر والجواب الذى وجهه المقوقس الى الرسول عليه السلام . والرسالتان من الوثائق الامة والنادرة المتعلقة بالدعوة الى الاسلام ونشره خارج الجزيرة العربية .

وفيما يتعلق باخبار المغرب الاسلامى ، نشير الى أن غزارة المادة التاريخية المتوفرة لدى ابن عبد الحكم ، قد دفعته الى تخصيص الفصل الخامس من كتابه (فتوح مصر والمغرب) لاخبار المغرب والاندلس وعن ابن عبد الحكم نقل جميع المؤرخين الذين اتوا من بعده . وهكذا نجد أن المؤرخين الاربعة : الواقدى ، البلاذرى ، الطبرى وابن عبد الحكم وقد عاشوا خلال القرنين الثانى والثالث للهجرة هم من اقدم المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن الفتوحات الاسلامية للمغرب الاسلامى . ورغم ان بعض المصادر تتحدث عن محاولات لتدوين تاريخ المغرب الاسلامى وخاصة فى الاندلس خلال هذه الفترة فان جميع ما دون قد ضاع ولم تحفظ لنا الأيام أى شىء عنه .

- يتبع -

د . عبد الكريم كريم

مصادر الادب المغربي

بقلم : الدكتور محمد الاخضر

من خصائص المصادر البيبليوغرافية المغربية أنها مختلفة ، تقدم في شتى فروع المعرفة معلومات متنوعة ، كثيرا ما تكون غير منتظرة.

وعندما يعنى الامر بدراسة أدبية، مثل هذه ، فلابد ، للاطلاع على المصادر اللازمة ، من الرجوع الى المؤلفات المختلفة ، بما فيها كتب التاريخ ، والتراجم ، والرحلات ، والاجازات(I) ، والدواوين الشعرية، والفهارس(2) ، وحتى الكتب الدينية الخاصة(3)

وقد شعر ا. ليفي بروفنسال بفائدة عمل الاطلاع هذا على المصادر، وضرورته لكل بحث يتعلق بالمغرب حين كتب سنة 1920 :

« ان اهتماما يفرض وجوده منذ البداية : ألا وهو الاهتمام بالاطلاع على المصادر . فالبيبليوغرافيا الغربية المغربية لم تحظ بعد بأي بحث . نعم ، ان العمل بدأ في وقت كانت

(I) أنظر عن الاجازة دائرة المعارف الاسلامية ، جزء 2 ، ص . 473 (ب) – 474 (أ) .

(2) أنظر عن الفهارس د . م . ا. جزء 2 ، ص . 762 (أ و ب) .

(3) نجد من بين المصادر الادبية ، كتبا تاريخية مثل مؤلفات اليفرني والزياني والناصري ، ورحلات مثل **محاضرات** اليوسي **ورحلة** العياشي ، وكتب تراجم **كالدرر البهية** للفضيل **ونشر المثاني** للقادري ، وأراجيز تعليمية مثل **الاقنوم في مبادىء العلوم** لعبد الرحمن الفاسي ، ومؤلفات دينية مثل **العمل الفاسي** لنفس المؤلف ، واخيرا مجموعات أدبية محضة مثل **الانيس المطرب** لمحمد بن الطيب العلمي .

أبواب المغرب ماتزال مغلقة فى وجوه العلماء ، مما أدى الى الاكتفاء بجمع معلومات متشتتة »(4) .

أما العمل المشار اليه ، فكان يجب أن يرمى ، فى نظر هذا الناقد ، الى البحث عن المخطوطات فى مكتبات المساجد والزوايا(5) ، وكذلك فى المكتبات الخاصة ، لان عدد الكتب العربية آنذاك كان غير كاف ، حيث ان مكتبة القرويين الشهيرة نفسها لم تكن تحتوى الا على ألف وستمائة وواحد وأربعين كتابا ، ما بين مخطوط ومطبوع (6) .

ومنذ هذا التاريخ فتح المغرب أبوابه للعلماء ؛ وحسب الاحصاء الاخير ، فان المكتبة العامة بالرباط تضم وحدها نحو عشرة آلاف مخطوط من مصادر مختلفة(7) ؛ ونشير كذلك الى أن المكتبة الملكية تضم هى الاخرى عددا من المخطوطات الثمينة(8) . ان اقتناء المخطوطات وتركيزها بهذه المكتبة أو تلك يتابع من يوم لآخر ، الامر الذى يجعل عملية الاطلاع على المصادر شاقة وعسيرة .

لا يتسع المجال هنا لوضع تاريخ تسجيل الكتب العربية بالمغرب ، هذا التسجيل الذى نذكر بأنه ابتدأ سنة 1918 على يد أ. بيل ، واستمر سنة

(4) **نشرة معهد الدراسات العليا المغربية** (ن. م. د. ع. م) السنة الاولى ، ديسمبر 1920 ، جزء I ، ص . 167 _ 168 . مقال بعنوان **الادب والاركيولوجيا بالمغرب** .

(5) أنظر عن الزاوية **د. م. ا.** جزء 4 ، ص. 1289 (أ) _ 1290 (ب) .

(6) ليفى بروفنسال ، **الادب والاوكيولوجيا** : نفس المرجع أعلاه .

(7) فى الوقت الذى نكتب هذا ، يبلغ عدد المخطوطات بالضبط 9.153 مخطوطا ، موزعة كما يلى : أ _ المكتبة العامة : 2978 . ب _ الكتانى : 3371 . ج _ الكلاوى : 1382 د _ الاوقاف : 1212 . هـ _ الحجوى : 137 . و _ المقرى : 67 . ز _ التوزانى : 6.

(8) سيبلغ عدد المخطوطات ، التى يجرى الان تسجيلها ، عشرة ءالاف مخطوط ، حسب تقديرات السيد محمد الفاسى ، بقطع النظر عن المخطوطات الموجودة فى قصر دار السلام بالرباط ، وفى قصر مدينة الدار البيضاء . أنظر محمد الفاسى ، **الخزانة السلطانية** فى مجلة البحث العلمى ، عدد 4 و 5 . يناير _ غشت 1965 ص 67 .

1921 على يد ا. ليفي بروفنسال ، وانتهى سنة 1958 على يد ا. س علوش و ع. الرجراجي(9) .

الا أننا سنستعرض الكتب التي تكون المصادر الاساسية لدراستنا هذه ، محاولين ان نرتبها ترتيبا زمنيا ، وان نبرز خصائصها عند الاقتضاء(10) .

أ) **الانيس**(11) ، للشريف محمد بن الطيب العلمي (توفي سنة 1134 = 1721) . هو كتاب يحتوي على اثنتي عشرة ترجمة لاثني عشر كاتبا من أشهر كتاب ذلك العصر ، وهو في نفس الوقت أحد المؤلفات النادرة التي تكتسي صبغة شبه أدبية صرفة تجد فيه ، الى جانب الشعر والنثر ، أصنافا من النوادر ، الشيء الذي يجعل منه ، كما قال ليفي بروفنسال « مزيجا من الملح والنكت والاستطرادات التقنية ، اذ نجد فيه تاريخ البرامكة ، ومجملا لعلم الفلك ومبحثا في كيفية العزف على العود ، وحتى تركيب الادوية العلاجية» (12)

ب - ج) النشر والالتقاط (13)

مجموعان في التراجم لمحمد بن الطيب القادري (توفي 1187 = 1773) أولهما ، وهو أشهر الكتب من هذا النوع ، يختص بجميع الاعلام

---

(9) اليك عناوين السجلات الثلاثة : أ ، **فهرست الكتب المحفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس** فاس ، 1918 . ب ، **المخطوطات العربية بالرباط** ، باريس 1921 . ج ـ **فهرس المخطوطات العربية بالرباط** . الرباط 1958 . وقد أنجز فهرس جديد ، منذ ذلك العهد .

(10) نشير الى أن عالمين شرقيين ألفا ، على غرار **وفيات** ابن خلكان ، كتابين في المراجع يشتملان على تراجم بعض العلماء المغاربة المشهورين في العصرين السعدي والعلوي ، وهما : الخفاجي صاحب الريحانة ، والمحبي صاحب الخلاصة .

(11) فيما يتعلق بالطبعتين لهذا الكتاب ، نشير الى أن ليفي بروفنسال لم يذكر الا طبعة 1315 ـ 1397 (مؤرخو الشرفاء ، ص . 296 ، رقم 5) .

(12) أنظر ليفي بروفنسال ، نفس المرجع ، ص . 297 .

(13) **النشر** : ترجم طرف منه الى الفرنسية ، أولا من قبل أ. كرول و ب. مايار سنة 1913 ثم من قبل ميشو ، بيلير سنة 1917 ، الكل تحت عنوان : **نشر المثاني لمحمد القادري** (الوثائق المغربية : **الوثائق المغربية** XXI 1913 و XXIV 1917) . أما **الالتقاط** فما زال مخطوطا .

البارزين فى المغرب ، وكذلك بأعلام العالم الاسلامى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (بالضبط من عام IOOI الى عام II70 = I592 = I757). وهو الى ذلك يذكر الاحداث الهامة كل سنة . وتوجد نسخة خطية منه اقتنتها أخيرا المكتبة العامة بالرباط، أضخم حجما وأوسع محتوى ، وهى مسجلة تحت رقم ك 2252 . أما الالتقاط فانه مؤلف بنفس الطريقة، غير أنه عبارة عن ملخص للنشر الاصلى .

د) **الاستقصا** ، لاحمد بن خالد الناصرى (توفى I3I5 = I897) (I4)، هو أحدث وأكمل تاريخ للمغرب(I5) كان لظهوره صدى لم يسبق لـه مثيل ، يذكر فيه الكاتب أهم الادباء فى العصور المختلفة التى يؤرخ لها، دون أن يغفل اعطاء نظرة سريعـة عنهم ، ويأتى بمقتطفات من آثارهم كلما دعت الحاجة الى ذلك . وعن العصر الـذى يهمـنا ، يستـقى

(I4) أنظر عن هذا الكاتب (I250 ـ I3I5 = I835 ، I897) : أ ـ **كتاب الاستقصا** لـه (فى البداية) . ب ـ السائح ، **المنتخبات** ، ص . IIO . II8 . ج ـ سركيـس . معجـم ، ص . IO40 . د ـ بروكلمان ، **تاريخ الادب العربى** . جزء 2 ، ص. 706 ، ـ الملحق ، جزء 2 . ص 706 . الطبعة الجديدة ص 888 . و ـ ا. ليفى برفنسال، **مؤرخو الشرفاء** ، ص. 350ـ368 . ز ـ ز. باصى ، **مصادر** ص 47 رقم I40 . ح ـ ع. ابن ابراهيم **الاعلام** ، جزء 2 ، ص 236ـ239 . ط ـ ش . بيلا ، **اللغة والادب المغربى** ، ص I80 . ى ـ م. الفاسى ، **الادب المغربى** ، ص 540 ب . ك ـ م. ابن تاويت و م. عفيفى ، **الادب المغربى** ص 47 .

(I5) ترجم القسم الخامس من هذا الكتاب الى ألفرنسية من قبل أ. فومى تحت عنوان : **تاريخ الدولة العلوية بالمغرب (الوثائق المغربية**، IX و X باريز I906 ـ I907) . أما الاقسام المترجمة التى تلت فهى : أ ـ أ. كرول و ا. حميد (نفس المرجع XXX I923).

ب ـ أ. كرول و ج. س. كولان (نفس المرجع XXX جزء I، I925) . ج ـ نفس المرجع، جزء 2 I927 . د ـ نفس المرجع ، جزء 3 ، I934 .
هذا ، وينقص الكتاب عصر ما قبل الفتح العربى للمغرب والفترة التى ما بعد سلطنة مولاى عبد العزيز .

معلوماته من ثلاثة مصادر رئيسية: القسم الاخير من **نزهة الحادى** لليفرنى ، **والترجمان** للزيانى ، **والجيش العرمرم** لاكنسوس ، التى كثيرا ما يرجع اليها . وبصفته أديبا فان له من حين لآخر ملاحظات صائبة حول الثقافة المغربية تدل على شيء من الحرية والاستقلال فى الرأى ، كما عبر عن ذلك ليفى بروفنسال نفسه .

هـ) **الدرر البهية** ، لادريس بن أحمد العلوى المعروف بالفضيلى (توفى 1316 = 1898) (16) أشهر كتب الانساب المتعلقة بالشرفاء الادارسة . كل شخصية تستحق الذكر من هذا النسب تجد مكانها فى الكتاب الذى يضم ، علاوة على ذلك ، اشارات تاريخية مهمة واستشهادات شعرية .

و) ياتى بعد ذلك كتاب **التراجم** الذى عرف أعظم شهرة فى المغرب ، الا وهو سلوة الانفاس لمحمد بن جعفر الكتانى (توفى 1345 = 1926) ، الذى طبع على الحجر بفاس عام 1316 = 98–1899 ، أو 1318 = 1900 ، حسب تقدير صاحب **الدليل** (ص . 68 وجزء 1) (17) ، جمع فيه المؤلف كل الشخصيات المشهورة المدفونة بفاس ، مرتبين وفق الأحياء التى توجد بها أضرحتهم ، وأعطى عنهم أوسع ما يمكن من المعلومات . وقد استوحى من هذا الكتاب عدد

---

(16) أنظر عن هذا المؤلف : أ. ليفى بروفنسال ، **مؤرخو الشرفاء** ، ص 347 . ب — ابن سودة **الدليل** ، جزء 1 ، ص 93–94 .

أنظر عن هذه الشخصية : أ — الفضيلى ، **الدرر البهية** ، جزء 2 ص 221 . ب — عبد الحى الكتانى ، **فهرس الفهارس** ، جزء 1 ، ص 388 — 392 . ج — محمد الفاسى : **الادب المغربى** ، ص 540 (ب) — 541 (أ) . د — ليفى بروفنسال ، **مؤرخو الشرفاء** ، ص 379 — 381 .

(17) ويزيد هذا المصدر : أ — ان **السلوة** قد ذيلت من قبل عبد الحى الكتانى . ب ، ونظمها الحسن بنونة (توفى 1928) . ج — واختصرها العربى العزوزى الزرهونى . ونذكر بأن مصادر هذا الكتاب كانت موضوع الدراسة التى قام بها ر. باصى بعنوان **ابحاث بيبليوغرافية عن مصادر سلوة الانفاس** ، الجزائر ، 1905 .

كثير من المؤرخين ، نظرا لما اكتسبه من صيت وشهرة .

ان الكتب الستة المتقدمة ، والتى هى مصادر أساسية ، كلها خاصة بالتراجم ، ما عدا **الاستقصا** ، الذى هو كتاب تاريخ قبل كل شيء ، **والدرر** التى يمكن ، مهما كان الامر ، ادراجها فى هذا الصنف .

نذكر الآن مصادر أخرى من أنواع مختلفة ، وهى :

أ ـ **الفهارس** ، وأهمها فهرست عبد القادر الفاسي (توفي 1091 = 1680) التى كتبها ولده عبد الرحمن (توفي 1096 = 1684) ، والتى هى توسيع للاجازة الممنوحة لابى سالم العياشى (توفي 1090 = 1679) = يحتوى هذا الكتاب على معلومات مفصلة عن أساتذة الشيخ الكبير ، والمواد المدروسة ، والكتب المقروءة(18) .

ب ـ **الرحلات** ، وأشهرها رحلة العياشى الآنف الذكر ، التى تحمل عنوان ماء الموائد . تشتمل هذه الرحلة ، زيادة على وصف البلدان التى مر بها الكاتب ، على تراجم علماء مشهورين ، واشارات تاريخية، ومناظرات فقهية لا تخلو من طرافة. لذا ، نجد لها الطابع الموسوعى الخاص بالكتب المغربية من هذا النوع ، اكثر من المظهر المحدود ككتاب جغرافيا .

أما المصادر التى سنتعرض لها الآن ، فهى من تأليف كتاب عصرنا هذا . وتأتى فى طليعتها كتب خاصة ببعض المدن ، من **نوع السلوة** ، حيث يحاول فيها كل مؤرخ أن يطرى محاسن مسقط رأسه ، ويورد تراجم الشخصيات اللامعة المقبرة فيه ،

(18) هذه الاجازة قد درسها وشرحها محمد بن شنب ونشرها بعنوان : **دراسة عن الشخصيات المذكورة فى اجازة الشيخ عبد القادر الفاسى** ، باريز 1907 .

أو التي سنحت لها فرصة الاقامة به لاغير .

أ ـ أول حلقة في هذه السلسلة (19) هو كتاب **السعادة الابدية** لابن الموقت المراكشي (توفى 1369 = 1950) الذى يفيد كثيرا بمعلوماته المهمة ، رغم كونه تقليدا شاحبا **لسلوة الانفاس** ، كما قال عنه ليفي بروفنسال . فهو يعتبر اذن مصدرا أساسيا من النوع الطبوغرافي لاعلام مدينة مراكش .

ب ـ وبعد مرور عشر سنوات خصص عبد الرحمن بن زيدان (توفى 1365 = 1946) ، نقيب الشرفاء العلويين سابقا ، كتابا قيما ضخما لتاريخ مدينة مكناس ، لم يكمل للاسف : **اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس** . ففيه ، علاوة على التراجم ، معلومات تاريخية من الدرجة الاولى محلاة بوثائق رسمية.

ج ـ تلا هذا الكتاب ، بعد قليل كتاب مماثل عن مراكش أيضا ، لكن من تأليف عباس بن ابراهيم المراكشي (توفى 1378 = 1958) ، بعنوان **الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام** ، وهو مصدر أساسي مضمون مثل الكتاب السابق الا أنه لم يكمل كذلك مثله(20) .

وها هي الآن لائحة بكتب ذات

(19) يمكن أن نذكر كتبا أخرى خاصة ببعض المدن ، سواء منها القديمة او المهمة ، من بينها أ ـ محمد بوجندار ، **الاغتباط بتراجم اعلام الرباط** ، وهو مخطوط ألف سنة 1344 = 1925 ، ومات مؤلفه بعد ذلك بسنة واحدة . ب ـ محمد الكانوني (توفى 1938) ، **اسفي وما اليه** . القاهرة . 1353 = 1935 . ج ـ أحمد الرجراجي ، **الشموس المنيرة في اخبار مدينة الصويرة** ، الرباط ، 1354 = 1935 الخ ..

(20) نشير مع ذلك الى أن باقي الاجزاء ، التي اكتشفت اخيرا ، مسجلة تحت عدد 167 من ميكرو فيلمات المكتبة العامة بالرباط .

طابع أدبى صرف ، مما يكسب الامر صبغة تجديد فى هذا النوع :

أ ـ **فواصل الجمان** ، لمحمد غريط (توفى 1364 = 1945) (21) ، هو مجموعة منتخبات الادباء من بين وزراء وكتاب الدولة العلوية . وهذه المجموعة تذكرنا الى حد الاغراب **بقلائد العقيان** للفتح بن خاقان(22)، سواء فى محتواه او فى شكله ، ولما فى أسلوبه من افراط فى المبالغة والتصنع ، مما لا يسهل الاستفادة منه .

ب ـ وفى نفس السنة ، أى 1920، نشرت منتخبات مغربية اندلسية بعنوان **المنتخبات العبقرية** ، مشابهة تمام الشبه للكتابين السابقين . ورغم أن مؤلفها ، محمد السائح (توفى 1947) ، كتبها لغاية تربوية، حيث انها موجهة لتلاميذ المدارس الثانوية ، فان مستواها يبقى عاليا بسبب نثرها المسجع ، وأسلوبها المنمق .

حـ ـ **تاريخ الشعر** ـ عنوان محاضرة ألقاها أحمد التميشى على تلاميذ ثانوية مولاى ادريس بفاس ، سنة 1924 . وهو مجموع أشعار منفردة أكثر منه **تاريخ شعر لأشهر** شعراء العاصمة الادريسية ، من عام 192 = 808 الى عام 1334 = 1915 .

د ـ خصص السيد محمد داود شمال المغرب وعاصمته تطوان بتاريخ مفصل أسماه **تاريخ تطوان،** نشر ملخصه قبل ذلك بعنوان **مختصر تاريخ تطوان** . يحمل هذا الكتاب ، الذى صدر منه لحد الان ستة اجزاء ، اشارات مفيدة عن الحياة الفكرية لوراثة الاندلس القديمة .

---

(21) هو ابن الوزير السابق المفضل غريط ، ولد عام 1298 = 1880 ، وتوفى عام 1364 = 1945 . انظر عنه **الدليل** ، جزء 1 ص 278 .

(22) انظر عن الفتح بن خاقان : بروكلمان ، **تاريخ الادب العربى** ، جزء 1 ، ص 273 و 939 **والملحق** ، جزء 1 ص 579 .

هـ — وقد أسهم بدوره اقليم سوس في هذه الحركة الثقافية بصدور كتاب ضخم بعنوان **المعسول**، لمحمد المختار السوسي (توفي 1963) يشتمل على اكثر من عشرين مجلدا، وكما حدث في الكتاب السابق، استخرج من **المعسول** ملخص بعنوان **سوس العالمة** . والمؤلف ، سواء في هذين الكتابين او في الكتب الاخرى التي خصصها **لأقليمه** الاصلي — من جملتها **ايلغ قديما وحديثا وخلال جزولة** — يروي بكل تفصيل ودقة جميع الاحداث والاخبار التي لها علاقة بهذا الاقليم ، سياسية كانت أم اجماعية أم ثقافية .

ب — دراسات في الادب المغربي

ان الدراسات التي تباشر في ميدان ما تتعلق كليا أو جزئيا بالمصادر التي تغذيها . واذا كان مجهود البحث البيبليوغرافي في المغرب قد انصب على التراجم وعلم الاثريات والفلكلور ، كما سنرى ذلك بعد قليل ، فليس من العجب أن نرى قلة الدراسات الادبية في هذه البلاد .

منذ سنة 1922 ، نبه ا. ليفي بروفنسال على هذه الفاقة في مقال تحدث فيه عن الدراسات الاخيرة المنجزة في تاريخ الادب المغربي ، فكان من جملة ما قاله :

« ان الدراسات المخصصة لتاريخ الادب بذاته أقل بكثير من نشر النصوص وترجمتها ؛ لكن ينبغي أن نشير الى ان الادب الاندلسي موضوعها الوحيد ، على وجه التقريب في شكل تراجم منفردة تتعلق بشعراء العصور الوسطى(23) » .

---

(23) أنظر **الدراسات الاخيرة في تاريخ الادب المغربي** (هيسبريس ، جزء 4 ، سنة 1922 ، ص 441—443) . وقد ذكر الناقد ، قبل ذلك ، التراجمات المنفردة الثلاث التي هي أهم تراجم ذلك الوقت ، والتي خصصت : اولاها لابن الخطيب ، بقلم دى ألديكوا . والثانية لابن سهل الاسرائيلي ، بقلم ألصوالح . والثالثة لابن زيدون ، بقلم أ. كور .

وتناول نفس الموضوع السيد محمد الفاسي ، بعد ثمانية عشر عاما ، بقوله :

« ما زال تاريخ الادب العربي في المغرب مفتقرا الى أن يكتب ، اذ لم يطرقه لا المغاربة ولا المستعربون الذين اهتموا بالدراسات المغربية ؛ أقعد الاولين عن هذا العمل جهلهم بطرق البحث الحديث والتصنيف والنقد ؛ وأخر عنه الآخرين لانهم بدأوا ، في التعرف على المغرب ، بالتاريخ والجغرافيا والانساب(24)».

وقبل أن نؤكد قطعا أنه حتى سنة 1940 ، وهو التاريخ الذى حرر فيه الكاتب مقاله ، لم يوجد أى كتاب أدبى في المغرب ، سندرس ، حسب الترتيب الزمني ، بعض المحاولات التى يمكن أن تعتبر آثارا ذات صبغة أدبية .

فأول عنوان يستوقف أنظارنا هو **موجز في أدب المغرب الاقصى** ، لكرابير دى هيمسو(25) الا أننا ، ما أن نتصفح هذا الكتيب المشتمل على أربعين صفحة فقط ، حتى يخيب ظننا عندما نجد بالخصوص ان عنوانه لايطابق محتواه . فهو عبارة عن مذكرات قنصل أقام بالمغرب اكثر منه بحث أدبى ، أراد به أن يعرف بهذه البلاد من ناحية التاريخ والسكان والاجتماع . أما القسم الوحيد فيه الجدير بالفائدة هو الذى يعطى قائمة مرتبة ترتيبا زمنيا بالمؤلفين الاوربيين الذين كتبوا عن سكان المغرب(26) .

---

(24) أنظر **الادب المغربى** ، ص 524 (أ) .

(25) تفضل الاستاذ السيد محمد الفاسى فاطلعني على ميكرو فيلم هذا الكتاب الذى طبع فى ليون سنة 1820 ، ثم لم يعد طبعه بعد . أما مؤلف هذا الموجز ، فكان آنذاك كاتبا لجلالة ملك صقلية والنرويج بصفته قائما مقام القنصل العام فى امبراطورية المغرب ، مقيما بطنجة .

(26) اليكم عناوين فصول هذا الموجز : أ ـ اعتبارات عامة حول كتب التاريخ المؤلفة عن هذه البلاد ، سواء باللغة العربية أو بمختلف لغات أوربا (ص I ـ8) ، ب ، نظرة عن تاريخ السكان (ص 8 ـ 36) . ج ـ تاملات حول التكوين الفكرى والخلقى للمغاربة ، (ص 36ـ37) .
وسيؤلف كرابير بعد ذلك باربع عشرة سنة كتابا باللغة الايطالية ، له نفس الطابع ، بعنوان سبيتشيو جيو كرافيكو ، طبع بجنوى سنة 1834 .

كان لابد من انتظار بداية قرننا هذا لنرى ظهور محاولات عن المغرب تكتسي طابعا ادبيا حقيقيا ، سواء في شكل مقالات أو كتب . وربما كان أقدم هذه المحاولات هي **الابحاث البيبليوغرافية** لروني باصي (الجزائر 1905) ، **والاجازة** لمحمد بن شنب (باريز ، 1907) ، كما اشرنا الى ذلك سابقا . ورغم كون الاولى منهما مختصة بمصادر السلوة ، والثانية بتراجم أساتذة الشيخ عبد القادر الفاسي ، فان هاتين الدراستين تحتويان على معلومات مهمة عن الحياة الادبية بالمغرب .

وابتداء من سنة 1920 ، أخذت تكثر المطبوعات الادبية ، تقوم باصدارها مؤسسات مخصصة للنهوض بالبحث وتوجيهه ، كمعهد الدراسات العليا المغربية بالرباط .

ان أكثر ما كتب عن الادب المغربي هو بقلم ا. ليفي بروفنسال ، من ذلك :

أ ـ الادب العربي والاركيولوجيا بالمغرب . في هذا المقال الذي قد يكون من اول ما كتب في هذا الموضوع يضع الناقد الادب المغربي ضمن أدب المغرب العربي الذي يعتبره كذلك فصلا من الادب العربي العام(27) .

ب ـ الدراسات الاخيرة لتاريخ الادب المغربي (28) . هذا المقال لم يتبع المقال السابق الا بعد مرور سنتين مخصص للدراسات المتعلقة بالمغرب من تونس الى قرطبة عبر فاس .

---

(27) انظر منشور معهد الدراسات العليا المغربية ، السنة الاولى ، عدد 1 ديسمبر 1920 ، ص 164 ـ 174 .

(28) انظر هسبيريس ، الدورة الرابعة ، 1922 ، ص. 441 ـ 443 .

ج ـ مغرب ، حياة فكرية هو عنوان مقال نشر **بدائرة المعارف الاسلامية** (جزء 3 ، ص . 340 – 343) . ثم أعيد نشره بالمجموع المعروف **بالتعرف على المغرب** (ص . 127 ـ133) بتاريخ 1932 . ان السنوات التي تفصل بين هذا المقال والمقالين السابقين مكنت الكاتب من تعميق أبحاثه في الادب المغربي وتقديم معلومات مفصلة عن مختلف مظاهر الحياة الفكرية في هذه البلاد .

هذه المحاولات الثلاث ليست الا تمهيدا لدراسة واسعة شاملة ستهتم بالمغرب من ناحيتي التراجم والتاريخ طوال القرون الاربعة الاخيرة بعنوان: **مؤرخو الشرفاء** . فهذا الكتاب الذى ستكون له أهمية قصوى في تاريخ الادب المغربي ، لا يحتوى فقط على كل المعلومات المفيدة عن أصحاب التراجم والمؤرخين للعصرين السعدى والعلوى ، ولكنه يشتمل أيضا على معلومات ثمينة عن الحركة الثقافية بالمغرب خلال هذه المدة(29) .

بعد ذلك يأتي دور هـ . بيريس لينشر سنة 1934 مقالا عن **الشعر بفاس أيام المرابطين والموحدين** (30) ، يرجع فيه الى المقالات السابقة ، ويستنتج ما ياتي : « ... حيث ان (فاس) افتقدت هذا المحيط الادبي الذى يخلقه وسط عربي أو متمكن من الاستعراب في جو من الحرية الروحية الفسيحة ، لم تستطع أن ترى مزدهرين بين جدرانها سوى الفقهاء الذين هم مع النحويين أقبح الناظمين في الادب العربي . »

---

(29) عنوان هذا الكتاب بالضبط هو : مؤرخو الشرفاء **محاولة عن الادب التاريخي والبيبلوغرافي بالمغرب من القرن السادس عشر الى القرن العشرين** ، باريز ، نشر ايميل لاروز ، 1922 في 470 صفحة .

(30) أنظر **هسبيريس** ، جزء 18 ، الدورة الاولى 1934 ص ، 9 – 40 .

غير أن الحادث الجليل فى تاريخ الادب المغربى هو ، بدون منازع ، صدور كتاب خاص فى هذا الموضوع ولاول مرة سنة 1938 ، بقلم السيد عبد الله كنون . وكما يدل على ذلك اسمه ، وهو **النبوغ المغربى فى الادب العربى** ، فان الكتاب لا يتناول فحسب الادب المغربى من أصوله الى نهاية القرن التاسع عشر ، داحضا بذلك الاسطورة التى كانت تزعم عدم وجود أدب مغربى ، ولكنه أيضا يبوىء هذا الادب مكانة سامية على صعيد التاريخ الثقافى للعالم العربى ، الامر الذى من أجله حظى باقبال عظيم داخل المغرب وخارجه(31) . والملخص القصير الاتى سيعطى فكرة عن هذا الكتاب :

الجزء الاول من الاجزاء الثلاثة ، فى الطبعة الجديدة ، مخصص للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية بالمغرب منذ الفتح العربى (62 = 681) الى نهاية ملك الحسن الاول ، عاشر ملوك الدولة العلوية (1311 = 1894) يرتب المؤلف مادته بحسب الدول ، متبعا الترتيب السياسى ، الشىء الذى لا يتفق دائما والمفهوم الحديث للنقد .

والجزآن الثانى والثالث مخصصان للنصوص المختارة ، أولهما للنثر ، والثانى للشعر . يرتب المؤلف هذه المختارات حسب الانواع والموضوعات وهذا الترتيب اكثر منطقا ، غير أنه لا يعقبها بأى تحليل أو شرح ، باستثناء توضيح معنى بعض الكلمات من حين لآخر ، وذلك : « رغبة فى

---

(31) أنظر عن هذا الموضوع : أ ـ مقالتين للامير شكيب ارسلان فى مجلة **الوحدة المغربية** ، عدد 224 و 234 ، سنة 1361 = 1942 ، أعيد نشرها فى الطبعة الجديدة من **النبوغ** جزء 1 ص 17 ـ 24 ، ب ـ رسالة حنا الفاخورى (نفس المرجع ، جزء 3 ص 5 ـ 6) ج ـ رسالة ك. بروكلمان (نفس المرجع ، جزء 3 ص 3) ومنذ بضع سنوات يذكر العلماء المستعربون هذا الكتاب كمصدر أساسى .

الايجاز وعدم التشويش على المطالعين» (32) . كما ادلى بذلك المؤلف نفسه فى المقدمة .

ونشير الى ان السيد عبد الله كنون نشر اخيرا كتابا عن الادب المغربى الحديث بعنوان : **أحاديث فى الادب المغربى الحديث** ، مذيلا بذلك النبوغ ومتبعا طريقة النقد المنطقية، مخصصا لتحليل النصوص وشرحها المجال الفسيح اللائق بها (33) .

وفى نفس السنة ، أى 1938 ، لوحظ ظهور العدد الاول من سلسلة وعد بصدورها ، لكنها للاسف توقفت **وهو كتيب عن محمد بن الطيب** العلمى مؤلف الانيس ، بقلم السيد عبد الوهاب بن منصور ، على طريقة **الروائع باسم البدائع**(34) .

وقد أعاد الاستاذ عبد الله كنون اصدار هذه السلسلة ، لكن باسم **ذكريات مشاهير رجال المغرب** ، مخصصا عددا لكل واحد من كبار كتاب المغرب . وقد بلغ ما ظهر منها لحد الان ثلاثين عددا .

وفى سنة 1940 ، نشر الاستاذ محمد الفاسى باللغة الفرنسية مقالا فى مجلة **مغرب ، دائرة المعارف الخاصة بالمستعمرات والبحار** ، تحت عنوان : **الادب المغربى** ، أعطى فيه نظرة عامة عن الحركة الادبية منذ بدايتها (93 = 711) الى التاريخ الذى كتب فيه المقال . وذكر أن أول تراث أدبى فى المغرب هو الخطبة الشهيرة التى ألقاها طارق بن زياد على جنوده عندما وطىء تراب الاندلس (35) .

---

(32) نفس المرجع ، ج 2 ، ص 7 .

(33) القاهرة ، 1964 ، دار الرائد للطباعة ، معهد الدراسات العربية العالية ، وهى محاضرات ألقاها الاستاذ عبد الله كنون .

(34) جزء 1 ، سلا ، 1357 = 1938 ، لم يعد طبعه . على طلبة قسم الدراسات الادبية اللغوية .

(35) أنظر أيضا ، فى هذا الموضوع ، محمد الحجوى ، **مجلة المغرب** ، ذيل العدد 9 ، 1352 = 1933 . ص 9 – 10 .

ومع قصرها ، فان هذه الدراسة تشتمل على معلومات قيمة مستقاة من مختلف المراجع ، بالاضافة الى المستندات الشخصية التى يعتمدها الكاتب . ورغم كونها تتبع ، فى ترتيبها ، تعاقب الدول على الحكم ، كما هو الشأن فى النبوغ ، الا أنها تعرف بالرجال ومؤلفاتهم فى اطار الحركة الأدبية لعصرهم . ولم يسمح ضيق المجال من جهة ، وامتداد الموضوع من جهة أخرى للناقد أن يستشهد ببعض النصوص ويتناول شرحها . والمقال مركب من ثلاثة أقسام :

أ ـ المقدمة (36) ، ويبين فيها الاستاذ محمد الفاسى الاسباب التى من أجلها لم يحظ الادب المغربى بأية دراسة .

ب ـ الفصول التابعة لتعاقب الدول على الحكم ، كل فصل منها يشمل النقطتين الآتيتين :

1 ـ اعتبارات عامة ؛

2 ـ الرجال وآثارهم .

ج ـ الخاتمة(37) .

وقد أوحى الادب المغربى الى الاستاذ ج. بيرك ، من الناحيتين الاصلية والاجتماعية ، دراستين خاصتين : الاولى **بالادب المغربى والشرق فى القرن السابع عشر** (38) والثانية **باليوسى ، مشاكل الثقافة المغربية فى القرن السابع عشر** (39). وقد برهن المؤلف ، فى كلا الكتابين عن معرفة عميقة للوسط المغربى واطلاع واسع فى ميدان الفقه والاجتماع .

د . محمد الاخضر

(36) ص 524 (أ) من نفس المرجع .

(37) ص 542 (ب) ، من نفس المرجع .

(38) نشرت هذه الدراسة بمجلة اربيكا ، جزء 2 ، سنة 1955 ، ص 295 ـ 312 .

(39) نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة **العالم ما وراء البحر ، الماضى والحاضر** ، السلسلة الاولى ، المجلد 2 ، السنة 1958 .

المغـــــرب في جغرافيـــة نزهـة المشتاق

بقلم : عبد القادر زمامـه

رأينا فى البحث الذى قدمنــــاه على صفحات مجلة البحث العلمـــى عن المغرب فى جغرافـيــة الرحالة المشرقى ابن حوقل(I) معالم عمرانية واقتصادية وسياسية لمغرب القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . ومن تلك المعالم استفدنا ان المسيرة الحضارية للمغرب لم تكن معطلة . وان دواليب الحيـــاة الاجتماعيـــة والعمرانية والاقتصاديـة لـــم تكن متوقفة عـلى الرغـم مـن التيارات المتعاكسة التى كانت تزعزع كل شيء فى هذه البلاد ..! والتى صورها ابن حوقل ..

وكان ينبغى محافظة على التسلسل التاريخى والربط الجغرافى أن نردف الصورة التى رسمها ابن حوقـــل لمغرب القرن الرابع بصورة اخــرى شبيهة بها رسمها الجغرافى الاندلسى ابو عبيد البكرى عن مغرب القرن الخامس الهجرى والحادى عشـــر الميلادى . كما كان ينبغى أن نستنتج من المعلومات التى احتفظ لنا بهـا البكرى فى كتابه ما استنتجناه من المعلومات التى دونها ابن حوقل . والمشاهدات التى شاهدها فى بلادنا .. وكتب عنها .. !

ولكننا ونحن ندرس ونقدر أهمية النصوص التى بين أيدينا ـ وفى مقدمتها نصوص البكرى عن المغرب فى القرن الخامس ـ ندرك أن المدرسة التى يمثلها البكرى وجماعة كبرى من الجغرافيين الاندلسيين الافذاذ كانت ذات منهاجية علمية خاصة بارزة فى آثارها ..! وهذه المنهاجية مبنية على المزج بين الجغرافية والتاريخ واعتبارهما فنين متكاملين . والربط المستمر بينهما .

وهذا ليس عيبا ولا نقصا ولكنه منهاج اصطلاحى معين .. كتب هؤلاء به مؤلفاتهم فى حقبة معينة . وسار على نهجهم بعض المؤلفين الجغرافيين فى عصور لاحقة ..! والدارسون الباحثون ـ بعد أن يعرفوا المناهج ـ يستفيدون من الكتب المؤلفة على منهاج هذه المدرسة ويلحقون كل صنف من المعلومات بالمكان الذى يناسبه من أبحاثهم . جغرافية كانت أو تاريخية ..!

وشىء آخر حدانا الى تخطى المعلومات المفيدة التى عند البكرى . ونحن نرسم صورا جغرافية بالمعنى العام للمغرب فى مختلف العصور..! وهو أن البكرى كتب ما كتب عن المغرب معتمدا على الامالى والسماعات والمؤلفات التى كتبها أساتذته الافذاذ وقد حظى البكرى فى عصره بالاخذ عن جماعة من الجغرافيين الاندلسيين الذين كانوا وما يزالون عمدة فيما كتبوا عن الاندلس والمغرب ..! وترجمة البكرى حافلة باسمائهم كما أن كتبه اللغوية والجغرافية غير بعيدة عن نفسهم ومنهاجهم .

ولم نجد فى التراجم التى كتبت للبكرى ـ حسب ما نعلم ـ ولا فى الكتب التى الفها البكرى والمعروفة لحد الان . ما يدل أو يشير الى أن البكرى رحل الى المغرب . أو شاهد بعض أقاليمه الساحلية او الداخلية التى وصفها وصفا جغرافيا فى كتابه .. ! مع معلومات تاريخية مفيدة ..!

فمعلومات البكرى عن المغرب فى عصره معلومات مفيدة . معتمدة على السماع والنقل لا علـى الرحلـة والمشاهدة .

ونحن نعتمد فى بحثنا هذا عـلى هذين العنصرين ، لتكون الصـور التى نرسمها حية نابضة تدلنا على ما وراءها من معالم وسمات ومـا خلفته من رواسب وصلات ..!

لهذا ننتقل الى الصـورة التـى كتبت للمغرب فى القرن السادس الهجرى ، والثانى عشر الميلادى . بعدما قدمنا السبب الذى حملنـا على تخطى الصـورة التى كتبـت للمغرب فى القرن الخامس..! وسواء علينا أشاركنا فى منهاجنا هذا غيرنا أو خالفنا .. فان القضية قضية اختيار ومنهاج ، لا قضية غفلة أو اهمال لمصادر اساسية فى الموضوع .!

ومؤلف نزهة المشتاق الادريسى لا نتحدث عنه الا من ناحية واحدة. وهى صلتـه بالمعلومات والنصوص التى تتعلق بالمغرب من كتابه العظيم الاهمية ..!

فهو اولا مواطن مغربى ، وصلته وثيقة بالمغرب والمغاربة وعاش مدة من حياته فى المغـرب وهـذه اشياء مسلمة على سبيل الاجمال ، اذ اننا لا نملـك ـ حسب مـا بيدنا مـن معلومات ـ تفصيلا دقيـقا لمراحـل حياته منذ نشأته ، الى رحلاته ، الى مماته ..!

ونصوص نزهة المشتاق تدل على أنه شاهد عيان فى الجملة حيـث اننا نجده عند وصفه لمدينة أغمـات يقول ، انه عاين مرارا تجمد ميـاه النهر وسطها .. وعبور الاطفال عليها من غير أن تنكسر ..!!

كما أن حديثه عن القبائـل والاصول والفروع والاسماء والمسميات والمعالـم ، والمـدن ، والقـرى ، والحصون ، والجبال ، والانهـار ، والمسالك ، والطرق ، والاسعـار ، والمنتوجات الحيوانية والنباتيـة ،

والاخلاق ، والعادات الممدوح منهـا والذميم ، يقنعنا انه عميق المعرفـة واسع الاطلاع عـلى احـوال وطنـه الاقتصادية والاجتماعية والسياسيـة والعمرانية ..! مشاهدة ..! ومدارسة وقد ذكر فى مقدمة كتابـه بعـض مصادره وضمنها ابن حوقل . ومن المستبعد أن يكون الادريسى يعتمد على موهبته فى الوصف ودقته فى الرسم ليكتب هذه المعلومات الحيـة النابضة وهو لم يشاهد ولم يلمس ما يتحدث عنه . وما يصفه ، وما يرسمه ، الا من خلال اخبار التقطها من مؤلفات او سماعات سمعها من الرحالين والسائحين ..!

كما أنه من المستبعد أن يكـون الادريسى قد شاهد كل شىء تحدث عنه ..! فالمعقول والمفهوم عـادة ان يكون جـمع بيـن مشـاهدات ومزاولات واستنتاجات وسماعات ، وثق بها . ومؤلفات اعتمدها ..! الا أن موهبته فى الرسم والتصويـر تجعلنا لا نكاد نفرق بين ما شاهده وما سمعه أو قرأه ..!

والادريسى ، وان لم يتخلـص نهائيا من المدرسة التى تـمزج بـين الجغرافيـة والتاريخ الا ان الفـرق واضح بين عمله فى نزهة المشتـاق وعمل اعلام هذه المدرسة ومنهـم البكرى فى كتاب المسالك والممالك..!

ويتعلـق منهاجيـا بمعلومـات الادريـسى عـن المغـرب واشاراتـه التاريخية عدة اشياء سنقف قليلا عند بعضها .. وهذه الاشياء ترجع الى التاريخ الذى كتب فيه نزهـة المشتاق والى نفسيته الخاصة ، والى موقفه من الوضع القائم فى المغرب حيث انه عاصر انهيار دولة ، وقيام اخرى ، وأثر ذلك فى الحياة العامة بالمغرب ..! وفى نفسه ايضا ..!

فعن النقطة الاولى نجد سنة 548 هـ التى دخل فيهـا الملـك النورماندى «رجار» ملك صقلية جزيرة جربـة التونسية للمرة الثانية دخول تعـد وغزو .! هى السنة التى لا نجد

بعدها تاريخ سنة أخرى متأخرة عنها ..! في نصوص نزهة المشتاق .. فهذا يعطينا ان الادريسي كان يكتب هذه المعلومات المتعلقة بالمغرب في هذه السنة والسنوات قبلها ..! كما صرح بذلك في المقدمة .

واذا صدقنا ما كتبه مترجمو الادريسي ودارسو حياته وآثاره من أن وفاته كانت سنة 560 هـ فمعنى ذلك انه كتب ما كتب قبل هذه الوفاة بنحو اثنتي عشرة سنة ..! بعد ان نضجت شخصيته العلمية واتسعت آفاقه الثقافية ..

ومعنى ذلك أيضا أنه كان يكتب عن المغرب في عهد عبد المومن ابن علي الموحد . وهو اذ ذاك يطوى المراحل ويتخطى الحواجز والصعاب ليشيد الامبراطورية الشاسعة الاطراف ذات الامتدادات التي أفزعت القريب ..! وأقلقت البعيد ..!

أما عن النقطة الثانية فنفسية الادريسي نفسية تكاد تكون خالية من العقد والمركبات ، ولاسيما ما يرجع الى الافتخار والتعاظم .! وهو بدون شك كريم المحتد ، نبيل الارومة ، ذو حسب ونسب ، وباع في المعرفة ، وحظ وافر من الموهبة.!

واذا كان في واقع الامر ليس خاليا من العقد والمركبات فان من وافر عقله وحميد صفاته أن يبدو فيما خطه قلمه في معلوماته التي كتبها عن وطنه هادىء النفس متزن الفكر بعيدا عن الافتخار بحاضر أو ماض ..! يلاحظ وينتقد ولكن في حدود ..!

اما عن موقفه من الوضع الذى عاصره في المغرب وشاهد انعكاساته على الحياة العامة وعلى نفسه بالخصوص .. فان الادريسي الذى ولد سنة 493 هـ - فيما يقول مترجموه - شاهد المغرب وشاهد الاندلس ايضا على عهد علي بن يوسف بن تاشفين ومن بعده ، وعاصر الحوادث الكبرى التي مرت هنا

وهناك من اجل انهيار دولة وقيام اخرى ..!

لكنه فيما يظهر كان يرتضي عمل المرابطين ، أو على الاقل لا ينتقدهم فقد منح كلا من علي بن يوسف ، ووالده يوسف بن تاشفين اللقب المعهود وهو امير المسلمين ..! واستعمل هذا اللقب في حقهما عند حديثه عن مدينة مراكش ..!

اما عن الدولة ورجالها الاخرين، فانه يتحدث عنها باسم الملثمين والواحد ملثم . ولاشك ان الدولة كانت تسمى نفسها ويسميها انصارها دولة المرابطين ، والواحد مرابط .. وتسمى ايضا دولة اللمتونيين ، ودولة الصنهاجيين ..!

فالتعبير عن الدولة باسم الملثمين فقط ! لا يخلو ـ فيما يظهر ـ من شيء ..!!

امـا الموحدون فـان الادريسى يتجنب هذه المادة كليا فلا يذكر مذهب التوحيد ..! ولا الموحد ..! ولا الموحدين ..!

وانما هى دولة المصامدة .. والمصاميد ..!

ولا ذكر لمؤسس الدولة المهدى بهذا اللقب ..!

وانما هو محمد بن تومرت المصمودى ..!

اما خليفته عبد المومن الموحد فلا نجد له ظلا ولا اثرا ولا اشارة في هذه النصوص التي كتبت عن المغرب في نزهة المشتاق ، وعبد المومن على عرش مراكش .!

وينتقد تعطيل المسجد الذى بناه المرابطون في عاصمتهم ذلك التعطيل الذى انطقه بهذه الكلمات :

« ـ فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها ـ مراكش ـ المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلا مغلق الابواب ، ولا يرون الصلاة فيه .

وبنوا لانفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه ، بعد ان نهبوا الاموال ! وسفكوا الدماء ! واباحوا الحرم ..! كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا ..!! »

ولاشك أن هذا انتقاد مر وتهكم لاذع ..!!

وهذا لم يمنع الادريسى من ان يذكر عمل الموحدين فى عاصمة مراكش وفى غيرها من الاقاليم التى دخلت تحت نفوذهم من رفع « القبالة » والضرب على يد « المتقبلين » وهو يعنى تلك المغارم والاداءات التى كانت مفروضة أيام المرابطين على المبادلات التجارية دقت أو جلت . وعلى الصناع والفلاحين.. ولاشك ان هذا عمل مفيد .! وله اثره الاجتماعى فى انتعاش الحياة الاقتصادية والتخفيف على الطبقات الفقيرة والمتوسطة .!

والادريسى يزن كلماته ويدقق فى تعبيراته فلا يسمح لقلمه بالمجازفة ولا يسمح لنفسه أن تسترسل فى ذم أو مدح أو انتقاد لمجرد أنها أرادت مدحا أو ذما وانتقادا .. وبذلك كان موضوعيا الى حد كبير فى رسمه للصورة الجغرافية التى احتفظ لنا بها للمغرب الذى شاهده فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى ..!

ولا يفوتنا ان نشير قبل ان نرافق الادريسى فى عرضه الجغرافى الى أن مؤلفنا يسير على طريقة الجغرافيين الاقدمين الذين يقسمون الارض الى اقاليم سبعة ..! ومنهاجهم هذا يبعثر المعلومات المتعلقة بنقط معينة .. فنجد بعضها انحاز الى اقليم ، وبعضها انحاز الى اقليم ءاخر .. ولسنا الان بصدد مناقشة هذا المنهاج لا من حيث المبدأ ولا من حيث التطبيق ، وانما يكفى ان نشير الى أن معلومات الادريسى المتعلقة بالمغرب قد خضعت لهذا المنهاج ولم تتخلف عن المعلومات المتعلقة بأقطار أخرى فى هذا التبعثر ..!

فالحديث عن المغرب يبدأ من الجنوب بعد الحديث عن أقطار السودان وغانة والتكرور ، والصحارى والواحات المتصلة بها والتى كانت تمر بها قوافل التجارة فى غدوها ورواحها الى وسط افريقية وغربها . ونجد أنه حينما يصل بنا الى بلاد نول يبدأ فى الحديث عن القبائل واسمائها ونظام معاشها ويصف لنا مدينة نول ونهرها ، ويذكر قبائل لمطة ، ومسوفة ، ولمتونة وكدالة وغيرها من القبائل التى نعلم انها تكون صنهاجة الصحراء التى قامت على اكتافها دولة المرابطين ..!

ويريد الادريسى ان يقدم الينا نماذج من حياة اهل نول والقبائل المجاورة لها فيقول :

« وجل طعامهم واحفله الطعام المسمى بالبربرية **آسلو** ..! وهو انهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليا معتدلا ثم يدقونها حتى تصير جريشا ثم يمزجون العسل بمثله سمنا ويعجنون به تلك الحنطة على النار ، ويضعونها فى مزاودهم . فيأتى طعاما شهيا ، وذلك ان الانسان منهم اذا اخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ثم مشى بقية يومه ذلك لم يشته طعاما الى الليل ..! »

ومن المعروف فى المغرب الان ان هناك ما يشبه آسلو اسما ومسمى.! فكثيرا ما نسمع الحديث عن **سلو** الذى يهيأ على هيئة آسلو مع محسنات وزوائد أخرى ..! وتأخذ منه المرأة النفساء ما ينعشها أيام النفاس .. ويقدم للمهنئين والمهنئات

فسلو المعروف الان بالمغرب له سند عريق فى المغربية لا من جهة اسمه ، ولا من جهة مسماه ..!!

ويقول الادريسى عن اللباس المعروف هناك فى عصره :

« ولباس الرجال منهم والنساء أكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة

بالكـراذى ..!

ومن المعروف ان كلمة **الكـراذى** والمفرد **كرذية** لم تمت نهائـيا فى المغرب بل انها ما تزال معروفة فى بعض الجهات ..! لكنها تدل عـلى ما يشد على وسط الجسد ويلـف به البطن ..! وليس من المستبعد أن تكون لكلمة **الكـراذى** فـى بعـض الجهات نفس الدلالة القديمة .. ! اى انها تدل على عمائم الصوف ..! او تدل على المعنيين معا .. ! الى الان!

ويقف الادريسى بنا عند صناعـة الدرق اللمطى تلك الصناعة التـى اتسعت شهرتها فى الاندلس والمغرب وغيرهما طيلة قرون .. كما يقف بنا عند **مدينة** آزكى التى هى أول مراقى الصحراء ويقول عن اهلها انهـم متحضرون يلبسون **مقندرات** ثيـاب الصوف ويسمونها بلغتهم **القـداور**.

وكلمة **القداور** والمفرد **قدوار** من الكلمات التى ما زالت حية ومستعملة الى الان ..! فى نفس المدلول القديم بالتقريب ..

ثم ياتى وصف **سجلماسة ودرعة وسوس** بالمفهوم الذى لهذا الاقاليم المغربية فى عصر الادريسى وذهنه ايضا .. ونلاحظ ان المؤلف فى هذه الاقاليم وفى غيرها يستعمل كلمتى مدينة وقرية ، استعمالا فيه كثير من التقريب والتسامح او هكذا يخيل الينا .. كما نلاحظ انه يعتمد هنا اعتمادا واضحا على المعلومات التـى رأيناها عند الرحالة ابن حوقل ..! بل يستعمل احيانا نفس تعبيره ..!

فسجلماسة اخذت عناية كبـرى من وصـف الادريـسى عمـرانيـا واقتصاديا وفلاحيا . حيث كانت على حد قوله : مقصد الوارد والصادر .! وحاصلاتها من التمر والقطن والحنطة يعزوها الادريسى الى فيضان نهرها ايام الصيف ..! حيث ينقل اليهـا الخصب والبهجة ..! ويشبه ذلـك بالنيل كما فعل ابن حوقل . ويلاحظ الادريسى ان سكان سجلماسة وما

حولها يسمون ما تجود به أرضهم من حنطة باسم : **يردن وتزواو ..!**

ولاشك أن الادريسي يصف لنا سجلماسة القرن السادس قبل خرابها واهمال شأنها . وما كان لاهلها من اهتمام بمجرى النهر وتعهد طرق السقى بكل الوسائل ..! وقد انتقل عمران سجلماسة بعد خرابها الى أماكن اخرى على النهر الكبير (زيز) واخذت هذه الاماكن اسماء أخرى زاحمت اسم سجلماسة حتى كاد ينسى لولا انه مدون فى كتب التاريخ والجغرافية والرحلات شرقا وغربا .. طيلة قرون ..!

ويصف لنا الادريسي درعة بلاد الحناء والكمون والكزويا والنيلج والتمر ..! ولا يقف عندها الا قليلا ليصل بنا الى بلاد سوس ..! ومدينتها الكبرى تارودانت فيصف لنا المنتوجات والغلات والفواكه وقصب السكر بنوع خاص فيقول :

« ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب اليها ما يعم اكثر الارض.! وهو يساوى السكر السليمانى ..؟ والطبرزد بل يشف على جميع انواع السكر ، فى الطيب والصفاء ، ويعمل ببلاد السوس من الاكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لايقدر احد على عمله بغيرها من البلاد ..! »

ويتتبع عادات سكان سوس ، واخلاقهم ، ومذاهبهم الدينية وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم ، ويتحدث بنوع خاص عن المشروب المشهور عندهم باسم **آنزير** فيقول :

« وهو حلو يسكر سكرا عظيما.! ويفعل بشاربه ما لا يفعله الخمر ..! لمتانته وغلظ مزاجه .! وذلك انهم يأخذون من عصير العنب الحلو فيطبخونه بالنار الى ان يذهب منه الثلث ..! ويزال عن النار ويرفع ويشرب . ولا سبيل الى شربه الا بخلطه بمثله ماء .! واهل سوس الاقصى يرون شربه حلالا ..! ما لم يتعد به الى حد السكر .! »

وهذا المشروب المعروف باسم آنزير ـ كما يقول الادريسى ـ في سوس .. هو الذى كان معروفا ايضا فى جهات من المغرب باسم : **الرب**(3) ..! وفى جهات اخرى باسم **الصامت**(4) ..! وما زال اثر ذلك الى الان ..!

ويمر بنا الادريسى فى رحلة خضراء ببلاد سوس الى سفوح جبل درن ـ الاطلس الكبير ـ واصفا الغرس والحرث ورخص الاسعار ، وكثرة المواد الحيوانية والنباتية ووفرة الخيرات الى نفيس **الجبل** .! ونفيس **المدينة** الصغيرة ويعطينا معلوماته عن جبال درن التى تمتد سلسلتها الى جبال نفوسة بطرابلس وما فيها من ثروات حيوانية ونباتية وحصون وقلاع حربية . ومنها حصن **تنمل** الذى يسميه ـ تانملت ـ والذى هو ملجأ المهدى ابن تومرت وبه مدفنه بعد موته ثم يقول :

« .. فلما مات بجبل **الكواكب** ..! احتمله المصامدة اليهوحموه ودفنوه بهذا الحصن ، وقبره فى هذا الوقت بيت جعله المصامدة حجا يقصدون اليه من جميع بلادهم . وعليه بناء متقن كالقبة العالية لكنها غير مزخرفة ولا مزينة كل ذلك على طريق الناموس ..!! »

فهذا وصف ونقد ..! ويلفت النظر هنا التنصيص على موت ابن تومرت بجبل **الكواكب** .! ثم حمله الى حصن تنمل ..!

ونحن نعلم ان الموحدين احاطوا موت ابن تومرت بكثير من السرية والغموض محافظة على وحدة صفوفهم ويظهر ذلك من كلام مؤرخهم البيدق وغيره(5) ..! الا ان كون المهدى توفى بجبل **الكواكب** هو شىء افادنا به الادريسى ..! ولم نره لغيره .!

اما جبال الكواكب فقد بين لنا المؤلف موقعها فى فقرات اخرى عند كلامه على غمارة فقال :

« وبلاد غمارة بلاد متصل بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض . وطولها ثلاثة أيام ..! ويتصل بها من ناحية الجنوب جبال **الكواكب** . وهى ايضا جبال عامرة كثيرة الخصب وتمتد فى البرية مسيرة اربعة ايام حتى تنتهى الى مدينة فاس ..! وكان يسكنها غمارة ..الخ»

وتسمى جبال الكواكب باسم آخر وهو جبال **تازران** ..! وهذا الاسم الاخير مازال معروفا الى الان ..! هناك ..!

واشتهرت جبال **الكواكب** ايام الموحدين بسبب المعارك الحربية التى خاضوها هناك . وسجل هذا الاسم فى الرسائل الموحدية التى احتفظ لنا بها المؤرخ ابن صاحب الصلاة فى كتابه « المن بالأمامة»(6) وفى الاخبار التى رواها عن هذه المعارك مؤلف (الانيس المطرب بروض القرطاس)(7) الذى يسميها : (تيزران) .

ويطنب الادريسى فى وصف جبال درن ومنتوجاتها من زيت الزيتون . وزيت أرجان . والفواكه والثمار ..!

واهتمام الادريسى بالنبات ظاهرة عامة فى وصفه الجغرافى لاننا نعلم أنه نباتى عالم بالاعشاب وخواصها وله فى هذا الميدان مشاركة معروفة لا حاجة لنا بتتبع آثارها الان .. ويكفى ان نرجع الى النقول التى نقلها عنه ابن البيطار(7) ويصل بنا الادريسى الى مدينتى اغمات : وريكة ، وايلان . وحديثه هنا شيق جذاب نابض بالحياة لانه يصرح بمعاينة ما يصف من احوال أغمات ويسر اهلها وكثرة خيراتها ...! ويبدى فى آخر حديثه عنها أسفه على ما حل بها وباهلها على يد المصامدة! ومع ذلك ظل اهلها اغنياء مياسير.! لهم نخوة واعتزاز لايتحولون عنه .!

وفى مراكش نجد انفسنا امام العاصمة الكبرى التى شيدها يوسف

بن تاشفين سنة 470 هـ ـ على حد قول الادريسي ـ بعد ان اشترى بقعتها من أهل أغمات ..!

ويذكر من آثار المرابطين بها ـ قصر الحجر ـ والمسجد الذى عطله الموحدون . وطريقة استخراج المياه التي ابتكرها هناك عبيد الله بن يونس ..؟ على عهد يوسف بن تاشفين وهذه الطريقة ـ حسب وصف الادريسي ـ هى طريقة الخطارات المشهورة المعروفة بقاياها وآثارها الى الان فى جهات من جنوب المغرب ..! عند كلامه على مراكش ..!

نعم يستعمل كلمة الخطارات في موضع آخر من كتابه وكأنه يريد بها اسم آلة خاصة .! لرفع المياه وجذبها الى سطح الارض ..!

ولاحظ الادريسي اقبال الناس على أكل الجراد والكمية التي تستهلك منه كل يوم ..! حتى وضعت على بيعه ـ قبالة ـ على عهد المرابطين .. واسقطت عليه وعلى غيره عند قيام دولة الموحدين ..!

كما اخبرنا ان اليهود كانوا ممنوعين على عهد على بن يوسف بن تاشفين من السكنى بمدينة مراكش وان التجار منهم والصناع كانوا يدخلون اليها نهارا ويفضون بها اشغالهم ثم يخرجون فى المساء للمبيت خارجها ..! هذا ونحن نعلم ان ابن سعيد فى كتابه رايات المبرزين ص 98 ذكر لنا ابا ايوب اليهودى الشاعر الذى كان مختصا بخدمة على بن يوسف بن تاشفين..!

اما عن ءاثار الموحدين فى مراكش فان الادريسي الذى كان يكتب سنة 548 هـ لا يمكنه ان يحدثنا عن شيء منها ..!

ومن مراكش الى سهول المغرب الغربية مرورا بتادلة ودكالة وتامسنا وما بها من فحوص وأنهار وقرى وغياض وحيوانات ..! ومعدن النحاس فى مدينة داى وما الى ذلك.!

من قطن تادلة ، ومحصولاتها الفلاحية والحيوانية ..!

وقد لاحظ الادريسي كثرة السدر والنبق والسلاحف البرية التي تفوق السلاحف البحرية كبرا وعظما .. ! واهل تلك النواحي ـ على حد قوله ـ يتخذون من صدفها الدساتي للغسل (8) ..! والمعاجن للدقيق .!

ويصف ام الربيع **القرية** .! وأم الربيع **النهر العظيم** ..! وما على ضفتيه من عمران وفلاحة وفواكه ونبات كما يصف لنا غابة الاسود التي بقرب أم الربيع . كانت في ذلك العصر ..! وما اعتاده السكان هناك من براعة في اصطياد الاسود بطريقة خاصة وصفها ..!

وأرض دكالة كلها منازل وقرى وعمارات ومياهها قليلة ولكن خيراتها كثيرة جدا ..

ويأخذ في ذكر المراسي المعروفة اذ ذاك على المحيط وهي آسفي . ومازيغن . وآنفا . وفضالة ..

ويمر بنا الادريسي على قرية يسميها **أنقال** ..؟ ويقال لها دار المرابطين ..؟ ولا نعلم عن هذا الاسم ولا عن مسماه شيئا الان ..! ومنا يقصد به الادريسي .. وقد لاحظ كثرة النعام هناك وكثرة بيضه ومطاردة السكان له من اجل الحصول على ريشه ولحمه وبيضه .! وعلق الادريسي تعليقا طبيا على لحم النعام وخاصيته ..!

ويصل بنا الى سلا الحديثة التي لاحظ انها تبعد عن شالة القديمة الخربة بقليل ..! وهناك في مرسى سلا نجد حركة تجارية بين اهلها وبين الوافدين عليها من مدن الاندلس .. حيث يحمل اليها اهل مدينة اشبيلية زيوتهم .. ويشترون انواع الحبوب والمنتوجات المغربية الاخرى .! ويسمى نهر ابي رقراق باسم نهر (أسمير) وهو الاسم القديم لهذا النهر ..! كما ان له

اسما آخر وهو : وادى الرمان . عند المراكشى فى المعجب ..!(9)

وفى مدينة مكناسة الزيتـــون يفصل لنا العناصر العمرانية التـــى تكونت منها هذه المدينة وبعضها من عمل المرابطين وبعضها كان قبلهم فى شكل تجمعات سكنية وقرى كبيــرة وهناك نجد عدة اسماء فى مقدمتها : تقررت المرابطية ..! ثم تـــاورة . والقصر . وبنى عطوش . ومساكن مكناسة القديمة ..! وقد كانت هذه العناصر تكون المدينة التى كانت فى نقطــة حيوية من المغرب فى مختلف عصوره .! زيادة عـــلى ازدهارهـــا الاقتصادى ..! بسبب خصب تربتها وجــودة محصـــولاتــها ومعلومــات الادريسى عنها مفيدة ونحن نعلم أن الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة نفاه يوسف بن تاشفين الى مكناسة بعدما طوى صفحة ملوك الطوائف بالاندلس . ولحق به هناك ملك اشبيلية المعتمد بن عباد . قبل ان يتقرر مصيرهما النهائى بالاقامة فى أغمات ..! وقد حدثنا الامير عبد الله عن ذلك فى مذكراتــه(10) .. لكنه لم يحدثنا ولو بشىء قليل عن حالة مكناسة لنقارن بين ما شاهده فيها وما كتبه الادريسى عنها بعده

ويصف لنا الادريسى مدينة فاس وصفا معروفا قبله وبعده ولم نــر فيه عناصر جديدة بالنسبة لما عند غيره ..! الا انه يذكر لنا القبائــل المجاورة لفاس والقرى المحيطة بها من زواغة وفندلاوة . وبهلـــول . ومجاصة . وسلجون . وغياثة ..!

ويختم حديثه عن فاس بهـــذه العبارات :

« ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الاقصى ويسكن حولها قبائل **من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية»**

ولو اشار الادريسى الى الناحية العلمية بمناسبة الحديث عن فاس وناحيتها لافادنا كثيرا . ولكنـــه لم يفعل لا بالنسبة الى هذه المدينة ولا بالنسبة لغيرها من مدن المغرب.!

ويلفت النظر فى حديث الادريسى عن المرافق الحضارية بها قوله : « .. من عيون نابعة . ومياه جارية . وعليها قبـاب مبنـية . **ودواميـس** محنية .! »

ويقصد بها ـ كما هو المتبادر ـ الحمامات والاحواض المائية المعـــدة للنظافة والطهارة ..!

ويتابع المؤلف الادريسى حديثـه عن شمال المغرب ويلفت نظرنا فى وصفه الجغرافى هذا انه لا يستعمل الكلمتين الاصطلاحيتين المعروفتيـن وهما : **الهـبـط والـريـف** وقـد شاهدنا ابن حوقل فى القرن الرابع يستعمل كلمة **الهبط** ولا يستعمـل كلمة **الريف**

ويذكر مدينة سبتة مسقط رأسه وما تمتاز به من جنات وبساتين وما بها من فواكه وغلات منها قصـب السكر ..! ويتحدث باسهاب عـــن جبل موسى وبليونش وجبل المينة . ومصايد الحوت والمرجان . وكان مرجان سبته يصـــدر الى اقـطار السودان ..!

ويذكر القصر الصغير ـ قصـر المجاز ـ ومدينة طنجة وتشمس ، وقصر عبد الكريم ـ القصر الكبيرـ وازيـلا . والبصرة . وباب اقـلام وقرت وغيرها من المدن والقـــرى المعزوفة .

ويتحدث عن غمارة وجبالها ومـا فيها من عمارة متصلة ..! كمـــا يتحدث عـن جبال **الكـواكب** التـى تتصل بجبال غمارة من الناحيـة الجنوبية ..

ويصف الناحية الريفية المزمة . وكرط . ومليلية ويذكر خـــراب نكور ..! ولا يستعمل كلمـــة ـ ريف ـ كما اشرنا الى ذلك من قبل

ويصف الحصون التى بناهـــا المرابطون فى بنى تاودة ويقول عن عن تاودة هذه :

والطريق من فاس الى بنى تاودة

مرحلتان وهذه المدينة بناها اميــر من قبل **الملثم** ..! وكانت مدينـــة قائمة بذاتها لكثرة زروعها . وكانت قرب غمارة بمنزلة الثغــر ســدا مانعا ..! ثم يسجل تخريب المصامدة لهذه المدينة ..!

وهناك معلومات جغرافيةواقتصادية منشورة فى فصول الكتاب تصور لنا المغرب خلال النصف الاول من القرن السادس الهجرى والثانى عشـــر الميلادى .. وهذه المعلومات لم تفقد قيمتها مع العــلم أن المعلومـــات التى كتبت بعدها لم تكن لتصرفنا عنها ..!

عبد القادر زمامه

التعليقات

اعتمدنا في النصوص التي نقلناها من كتاب نزهة المشتاق على الكتاب الذي نشره الاستاذ هنري بيرس الاستاذ بكلية الآداب بالجزائر سنة I376 هـ 1957 م والذي يحمل عنوان :

وصف افريقيا الشمالية والصحراوية

مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

(1) مجلة البحث العلمي الجزء I9 الرباط يناير — يونيو 1972 .

(2) الطبرزد . والطبرزذ . والطبرزل . والطبرزن . كلمة معربة عن اللغة الفارسية . وهي تعني السكر الصلب . أنظر شفاء الغليل ص I29 والمعرب للجواليقي ص 228 .

(3) الرب بضم الراء هو عصير العنب المطبوخ وكذلك عصير الفواكه الاخرى —! وباب الرب شهيرة في مراكش — ! والكلمة عربية معجمية .

(4) الصامت عصير العنب المطبوخ وهذا اطلاق اصطلاحي فقط . لان المعاجم اللغوية تذكر الصامت بمعنى اللبن الخاثر — فاطلاقه على عصير العنب المطبوخ من باب المجاز —! أنظر المادة في تاج العروس

(5) أنظر روض القرطاس ج 2 ص I29 . ط . الرباط I 936 م

(6) أنظر تاريخ المن بالامامة ص 308 . بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي .

(7) أنظر روض القرطاس ج 2 ص 185 وقد كتبت هناك هكذا — تيزران —

(7)مكرر أنظر على سبيل المثال مفردات ابن البيطار ج 1 ص : 43 و 5I و 55

(8) من معانى الدست ما جاء فى التاج :

ونقل شيخنا عن الخفاجى فى شفاء الغليل ان عامة مصر وغيرها من بلدان المشرق يطلقون الدست على قدر النحاس فلينظر . وان صح فيستدرك به على المؤلف ... !
أنظر شفاء الغليل ص 85 وأنظر المادة فى تاج العروس

(9) أنظر ص 359 من ط القاهرة سنة 1949 م

(10) أنظر مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطـــة ص 160 و ص 171 القاهرة 1955 م

(11) يظهر أن ما يسمى الآن بفاس البالى هو الموقع الذى كان لهذه المدينة المرابطية ـ بالتقريب ..! وما زالت بعض الآثار هناك ..

العرش المغـــربـــي عبر التاريـــخ

بقلم : الدكتور عبد الله العمراني

اعتاد مؤرخو المغرب أن يبدأوا تواريخهم بالحديث عن فترات متأخرة من تاريخ المغرب الطويل ، فابن ابى زرع يبدأ كتابه « روض القرطاس » بالحديث عن دولة الادارسة ، والعلامة الناصرى يبدأ كتاب « الاستقصا » بمقدمة فى فضل التاريخ ، ثـــم يتحدث عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده وفتح العرب للمغرب وهكذا .

وكأن هذين المؤرخين وأمثالهما لم يكونوا يعيرون أهمية كبيرة لتاريخ المغرب قبل الاسلام ، وذلك فيما أرى ناتج عن واحد من هذه الاسباب او عنها مجتمعة وهى :

1 ـ قلة المصادر أو انعدامها .

2 ـ عدم أهمية الموضوع لـدى القارىء المغربى المسلم .

3 ـ اقتناع هؤلاء المؤرخين بـــأن الاسلام يجب ما قبله ، فلا حاجة بهم الى نبش ماضى المغرب قبل الاسلام.

---

(1) محاضرة ألقيت بالمكتبة العامة بتطوان يوم 6 مارس 1973 بمناسبة الاحتـفالات بعيـــد العرش لهذا العام .

وكيفما كان الامر ، فاننا اليوم لا نرى رأيهم ، ونرى أن الشعب المغربى أصيل ، وأن تاريخه حافل قبل الاسلام وبعده ؛ فمن الاخلال بالامانة التاريخية أن نهمل جزءا هاما من تاريخ بلادنا قبل الاسلام أو قبل ميلاد المسيح عليه السلام . حقيقة أن المصادر ما زالت قليلة غير متوافرة ، ولكن ما لا يدرك كله ، لا يترك بعضه أو جله .

كان فى امكانى أن أختار موضوعا تاريخيا مما له علاقة بموضوع الساعة : موضوع عيد العرش العلوى العتيد ، ولكنى رأيت أن الفائدة تكون أعم لو توسعنا فى الموضوع والقينا بعض الاضواء الكاشفة على العرش المغربى عبر التاريخ .

هو موضوع طويل عريض لا تستوعبه ساعة ولا اكثر من ساعة ، ولكنى فضلته مع ذلك ، وعلى الرغم من اتساعه وشموله ، لكن ألفت النظر الى أن عرش المغرب عريق ، عميق الجذور فى احشاء الزمن ؛ على عكس ما حاوله او يحاوله بعض الباحثين المغرضين من الايحاء بغير هذه الحقيقة الناصعة . وللاسف نجد بعض المواطنين تأثروا بهذه الدعوى ، فزعم هذا ان المغرب لا حضارة له ، وادعى ذلك أن البحث التاريخى لا يهم المعاصرين فى شىء فيجب علينا - فى رأيه - أن نبدأ الان ، ومن نقطة الصفر !؟

لسنا على هذا الرأى القائل بتاتا، لاننا نومن ايمانا جازما بأن الحاضر امتدادا للماضى ، وأن الماضى والحاضر معا اساس للمستقبل ، وكل مستقبل لا يقوم على أساس هو منهار لا محالة .

ليست لنا مصادر كافية للتعمق اكثر من ثنايا العصور التاريخية للمغرب ، وليس لنا الوقت الكافى كذلك ؛ ولذا يكفينا أن نرجع الى ما قبل الميلاد ببضع مئات من السنين لنرى العرش المغربى قائم الذات ، ونجد الامة المغربية ثابتة الكيان ،

على خلاف ما يدعيه بعض المغرضين ممن اشرت اليهم منذ هنيهة .

ان بلاد المغرب جذبت انتباه بعض التجار الفينيقيين ـ والقرطاجيين من بعدهم ـ فقصدوها وأسسوا مستوطنات ومراكز للاتجار . فعلى مصب نهر لكوس قرب العرائش أسسوا مدينة LIKS أو LIXU التى تعتبر أقدم من مدينة كادر (قادس الحالية) باسبانيا ، وعند ملتقى المحيط الاطلسى بالبحر الابيض المتوسط أنشأوا مدينة TINGIS (طنجة الحالية) ، وعلى بعد أربعة كيلو مترات جنوب غربى تطوان أسسوا مدينة تمودة TAMUDA وعلى مصب نهر أبى رقراق أنشأوا مدينة شالة ؛ وحيث تقع مدينة مليلية الحالية اختطوا مدينة روسادير RUSADIR ؛ وتعني هذه الكلمة البونية الاصل : الرأس أوالارض الداخلة فى البحر .

يدلنا التاريخ على أن الانسجام كان قائما بين المغاربة والقرطاجيين (2) ولاشك أن ذلك راجع الى الصلات الوثيقة التى كانت تربط بين الشعبين القرطاجى والبربرى فكلاهما سامى ؛ كما هو راجع الى تشابه العادات والتقاليد والمعتقدات . كل هذا دفع بالبربر الى سلوك سياسة تعايش سلمى مع القرطاجيين ؛ الامر الذى يجعلنا نستنتج أن كلا من الشعبين كان متأثرا ومؤثرا فى الآخر . ومن علائم تأثر المغاربة بالقرطاجيين أخذ اللغة مثلا عنهم ، واستعمالها فى حديثهم اليومى ، وفى قضاء مآربهم التجارية.

يذكر المؤرخ البيزنطى بروكو

(2) النسبة الصحيحة لقرطاجة CARTHAGE التى كان الرومان يسمونها CARTHAGO والاغريق CARHEDON وكل ذلك تحريف للاسم البونى KARTH-HADTHA الذى وجد منقوشا على عملات قديمة ومعناه : المدينة الحديثة . كانت عند تخريبها اكبر مدينة بشمالى افريقية اذ بلغ سكانها سبعمائة ألف نسمة .

بيوس PROCOPIUS الذى رافق بليزاريوس BELISARIUS فى حملته على شمالى افريقية فى القرن السابع الميلادى ان اللغة البونية (القرطاجية) كانت لغة المحادثة بين البربر . وهذا بالطبع الى جانب لغتهم البربرية التى يحتمل ان تكون قد انحدرت من نفس الاصل الذى انحدرت منه اللغات السامية ، كما يحتمل ان تكون احدى اللغات الحامية ، على خلاف فى ذلك بين علماء فقه اللغة .

وتذكر المصادر الرومانية أن جيوش المغرب كانت تخدم مع القرطاجيين قضية الحرية ، وتكافح معهم دفاعا عن جزيرة صقلية . وهكذا حاربت جيوش موريطانيا وقرطاجة جنبا الى جنب سنة 406 ق.م وكذلك فعلوا اثناء ما يعرف فى التاريخ بالحرب البونية الثانية (219 ـ202 ق م) . وجدير بالذكر أن الحرب البونية الثالثة ، لم يقدم فيها المغرب للقرطاجيين المساعدة المرجوة على الرغم من أن المبعوثين القرطاجيين اكدوا للحكام المغاربة خطورة الموقف حتى بالنسبة للشعب المغربى ، ذلك أن رومة فى حالة انتصارها على قرطاجة ، ستعمل حتما على مد نفوذها غربا حتى المحيط الاطلسى وهذا هو الذى حصل بالفعل ، فقد اندحرت قرطاجة سنة 146 ق م . وبسطت رومة نفوذها على بلدان شمال افريقية ، وعلى اسبانيا كذلك.

وهذا الخطر الرومانى الذى هدد الشعب المغربى آنذاك ، يوجد له مثيل فى الوقت الحاضر : هو الخطر الاسرائيلى والصهيونى العالمى . ومن هنا ندرك أهمية العمل الجليل الذى قام به جلالة الحسن الثانى حين قرر ارسال فرق من القوات المسلحة الملكية ، مع عدد حربية الى جمهورية سوريا العربية للدفاع عن الشعب السورى الشقيق ، وحقوق الشعب الفلسطينى المغتصبة ، كيلا يستشرى داء الصهيونية فى جسم الامة العربية ، فيستعصى الدواء بعد

ذلك .

وكان من نتائج تخريب قرطاجة على يد رومة أن هاجر الآلاف المؤلفة من القرطاجيين ، ولجأوا الى المستوطنات البونية الواقعة على السواحل الغربية التى اشرنا اليها منذ قليل ، ولجأوا كذلك الى الاندلس التى عبروا اليها ـ ولاشك ـ عن طريق اعمدة هرقل او بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)

ويتضح منذ سنة 200 ق م أن مملكتين بربريتين كانتا توجدان بشمالى افريقية :

احداهما : كانت تغطى اراضى جمهورية الجزائر الشقيقة ، وكانت تعرف باسم نوميديا .

والاخرى : كانت تنطبق على الجزء الشمالى والشرقى من مملكة المغرب ، وكانت تعرف باسم موريطانيا .

وكان ملوك هاتين المملكتين يحملون اسماء قرطاجية ، وينتسبون الى عائلات بربرية تربط بينها وشائج قربى متينة . فاسم جوبا الأول ، وجوبا الثانى JUBA هو مقتصر من كلمة JUBAL القرطاجية التى تعنى « المجد لبعل » وبعل اسم اله عندهم .

وبعد بسط رومة نفوذها على ممالك الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط ، أصبح لزاما على حكام الممالك البربرية أن ينغمسوا فى النزاعات الداخلية التى كانت تنشب بين الرومان انفسهم . ويدلنا التاريخ على أن بعض ملوك موريطانيا كان يتخذ بعض المواقف المتحررة المضادة لسياسة الرومان والمتنافية مع مصالحهم ؛ فهذا ملك موريطانيا بوكوس الاول BOCCHUS فى سنة 106 ق م يساعد صهره زوج ابنته الملك جوغورطا JUGURTHA ملك نوميديا فى حربه للرومان . ولكنه حينما يحس بحرج الموقف ، وبافلات زمام النصر ، حينئذ يسلم صهره الى

عدوه . ويقارن احد المؤرخين هـذه الحادثة بما وقع للسلطان مولاى عبد الرحمن بن هشـــام مع الزعيـــم الجزائرى الثائر الامير عبد القادر ، فقد أعانه على الفرنسيين أولا ثـــم خذله بعد ذلك عندما طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى ، وبلغ اليأس من النصر منتهاه .

ومثال آخر يدل على استقلال رأى الحكام الموريطانيين ، وعلى أن عرش المغرب كان حقيقة ثابتـــة وواقعـا ملموسا ، ذلك أن أحد الاخويـــن المشتركين فى حكم موريطانيا ، أعان مارك أنطونيو الرومانـــى ؛ بينـــما الآخر انحاز الى جانب اكتافيوس (الامبراطور انمطس فيما بـــعد) ، فنظم لصالحه ثورة فى طنجة ضد أخيه المنحاز لجانـــب انطونيـــو . وحينما انتصر اكتافيوس كافأ طنجة بأن منحها سنة 38 ق‌م حقوق المدينة الرومانية

فى سنة 46 ق‌م انتحر بالجزائر الملك جوبا الاول بعد معركة ثابسوس THABSUS التى ساعد فيها بومبى POMPEY فوضعت مملكته تحت السلطة المباشرة للرومان . اما ابنه المسمى باسمه أيضا ، فبعد مشيه أمام عربة القيصر أثنـــاء الاحتفال بالنصر ، ربى أحسن تربية رومانيه ـ اغريقية يمكن أن يربى بها أمير .

وفى سنة 30 ق‌م انتحر فى مصر انطونيو وكليوباطرة، وخلفا وراءهما ولديهما التوأمين الاسكندر هليوس HELIOS-ALEXALDER أى الشمس وكليوباطرة سيلين CLEOPATRA SILENE أى القمر .

وفى سنة 25 ق‌م نودى بجوبـا الثانى بن جوبا الاول ملكالموريطانيا واضيفت اليه نوميديا كلها حتـــى مدينة جيجيلى على البحر المتوســـط شرقى مدينة بجاية بالقطر الجزائرى الشقيق . واصبح يحمل لقب جوبا الثانى ملك الموريطانيين ، وأحيانـا يحمل لقب ملك الليبيين ، ويقصد بهذه الكلمة الاخيرة عموم سكـــان شمال افريقية . ومن المحتمل أن

حدود مملكة جوبـا الثاني كانت تنتهي غربا عند الرباط عاصمة المغرب الحالية ؛ وشرقا عند جبال الاوراش بالجزائر ؛ وأما حدودها الجنوبية فلم تكن محددة معروفة بالتدقيق .

وعندما بلغ جوبا الثاني السابعة عشر من عمره وكان ذلك سنة 19ق‌م تزوج بكيلوباطرة سيلين البالغة من العمر احدى عشرة سنة . ودام حكمه 48 عاما كاملة . وقد وصفه مؤرخ روماني بأنه من الوجهة التاريخية أعقل الملوك جميعا . فقد كتب أو صنف باللغة اليونانية خمسين كتابا على الاقل ؛ ولم يبق منها الا بعض اقتباسات تتعلق بالتاريخ والجغرافيا وبعض المواد الاخرى .

يذكر احد المؤرخين أنه في سنة 1907 وجدت بمدينة القصر الكبير سبعة آلاف قطعة من النقود ، تحمل في أحد وجهيها صورة جوبا الثاني مع عبارة REX JUBA وعلى الوجه الآخر تحمل في الغالب اسم مع صورتها BASILISSAKLEOPATRA أحيانا أو مع صورة تمساح أحيانا أخرى . ووجدت نقود أخرى تحمل اسم الملكة وحدها أي بدون اسم الملك ، ولربما كان هذا نتيجة غياب جوبا الثاني عن مملكته في بلاد شبه الجزيرة العربية ، حيث كان يجمع مواد لكتاب ألفه في موضوع بلاد العرب . ففي هذه الرحلة العلمية ترك زوجته تشغل وظيفة نائب ملك لمدة ثلاث سنوات أصدرت خلالها هذه النقود التي تحمل اسمها وحده .

من كل ما تقدم نرى أن المغرب — كأي شعب آخر أصيل — ظل يموج في خضم الحياة ، فمرة يطفو فوق السطح ، وتبرز شخصيته وقوته المادية والمعنوية حتى لتكاد تصل الأوج ؛ وتارة أخرى تسفل به الامواج فتهبط به قليلا عن مستوى النظر ، ولكنها لا تغرقه ،

ولا يفقد معها خصائصه ومميزاته بأى حال . وهذا الحكم أو التصور ينطبق على المغرب فى كل عصوره التاريخية ؛ كما ينطبق على كثير من الامم والشعوب .

ونسير فى موكب التاريخ فنصل الى الدعوة الاسلامية الظافرة التى رفع لواءها محمد بن عبد الله (ص) بشبه الجزيرة العربية اوائل القرن السابع الميلادى ، فلم يلتحق عليه السلام بالرفيق الاعلى الا وقد اكتسحت دعوته شبه الجزيرة من ادناها الى اقصاها . وجاء خلفاؤه من بعده ، فمدوا رقعة الاسلام حتى مواطن بعيدة تمتد بين ارباض الصين شرقا ، وبين سواحل المحيط الاطلسى غربا .

ويظل المغرب ولاية اسلامية تابعة للخلافة المشرقية فى دمشق ثم فى بغداد ، ويسهم بنصيب كبير فى نشر الدين الجديد ، الى أن يقع الحدث الذى هز كيان الخلافة العباسية بالمشرق ، فيستقل الاندلس تحت امرة الامويين سنة 138 هـ ، ويعقبه المغرب فيعلن استقلاله عن تلك الخلافة سنة 172 هـ على يد سليل على ابن ابى طالب مولاى ادريس بن عبد الله رضى الله عنهم أجمعين .

هنا يدخل العرش المغربى مرحلة جديدة من تاريخه الطويل الذى وهم بعض المؤرخين المعاصرين من الاجانب فجعله عشرة قرون فقط ، بينما هو الان يناهز اثنى عشر قرنا وربع قرن .

تقبل الشعب المغربى مقدم الامام ادريس بصدر رحب ، وحب قوى فى آل البيت ، واندفع تحت قيادته يعمق جذور الدعوة المحمدية فى بعض ربوع المغرب ، وقبائله التى لم تكن بعد قد اطمأنت الى الاسلام أو عانقته . وامتد الفتح شرقا حتى شمل مدينة تلمسان ، مما أثار حفيظة العباسيين ، فدبر خليفتهم

هارون الرشيد مؤامرة أودت بحياة الامام ادريس رضى الله عنه وأرضاه

كان في الامكان ان تؤتى المؤامرة على العرش المغربى أكلها المرتجو ، خصوصا اذا تذكرنا أن مؤسسه الجديد اغتيل ولم يترك خلفا الا جنينا فى بطن امه السيدة كنزة الاوربية . غير أن تعقل أهل الحل والعقد ، وحب الشعب المغربى لسلالة النبى عليه السلام ، كلاهما فضل التأني والانتظار حتى يخلق الجنين ليواصل بنجاح ما بدأه والده ، وليعمل على استمرار المسيرة وعلى حفظ كيان العرش المغربى والذود عنه حتى النهاية

ولانطيل بسرد الحوادث المتتالية أو المؤامرات التى كانت تستهدف القضاء على العرش المغربى ، لان كل تلك الحوادث أو جلها معروف مدروس ، ولكن الذى أريد أن أؤكد عليه هنا أمران :

1 ـ الضعف الناتج عن التنافس على الحكم وعن التآمر على العرش الادريسى ، مما أطمع فى المغرب أموبى الاندلس تارة وفاطميى افريقية تارة أخرى .

2 ـ أن القضاء على العرش الادريسى لم يكن معناه القضاء على العرش المغربى ، ذلك أن دويلتين مغربيتين قامتا بالتتالى فى أعقاب الادارسة ، هما دويلة آل العافية المكناسيين ، ودويلة مغراوة وبنى يفرن الزناتيين . حقا كانت هاتان الدويلتان تتأرجحان بين التبعية للامويين أو الفاطميين ، ولكنهما فى كلتا الحالتين عملتا على حفظ العرش المغربى من الدثور ، أو الانصهار فى بوتقة غيره ؛ وأسلمتاه بعد ذلك سليما صحيحا غير مثلوم ، الى أسرة مغربية صميمة من قبيلة لمتونة ، عرفت باسم دولة الملثمين أو المرابطين .

وصلت هذه الدولة أوج عظمتها على يد قائدها المحنك أميرها العظيم

يوسف بن تاشفين الذى مهد كل بلاد المغرب لسلطته ، ومد نفوذ العرش المغربى ـ على اثر موقعة الزلاقة الشهيرة ـ فشمل بلاد الاندلس ، وعمل بذلك على اطالة عمر الاسلام بشبه جزيرة ايبيريا نحوا من اربعة قرون أخرى .

وعلى الرغم من سعة النفوذ التى تمتع بها العرش المغربى فى عهد هذه الاسرة ، وعلى الرغم من ضعف الخلافة العباسية بوقوعها تحت سطوة المتغلبين من الاتراك أو الفرس وعلى الرغم من انتحال أمويى الاندلس وفاطميى القاهرة للخلافة ، فان امراء المرابطين اكتفوا بلقب « امير المسلمين » بدل « أمير المومنين » وهو اجراء اخترعوه محافظة منهم على وحدة الامة الاسلامية ، وتأدبا منهم مع الخليفة العباسى ؛ وللسياسة أحكام . ولو شاء امراء المرابطين أن يعلنوا الخلافة ، لما عابهم على ذلك أحد ، خصوصا أن كثيرا من المسلمين ـ وأعنى بهم الخوارج ـ لم يكونوا يشترطون أن يكون الخليفة من قريش ؛ بل فضلوا أن يكون غير قرشى حتى يسهل عزله ان خالف الشرع ، أو حاد عن الطريق السوى .

وفى وسعنا القول بأن مسألة الخلافة المغربية كانت فى عهد المرابطين فكرة لم تختمر ، وكان علينا ان ننتظر قدوم الموحدين الذين سيقومون بتنفيذ الفكرة ، واخراج الخلافة المغربية الى حيز الوجود ، وهكذا نجد عبد المومن ابن على يعلنها صريحة ، ويلقب نفسه بأمير المومنين ، ويعمل من جهة اخرى على الحفاظ على تراث المرابطين (الاندلس) وعلى مد نفوذ الخلافة المغربية حتى حدود ليبيا . وبذلك جعل « المغرب الكبير » حقيقة واقعة.

يبرز فى الاسرة المرينية السلطان ابو الحسن على وولده أبو عنان فارس ولن ينسى العالم المتحضر تلك الكارثة التى حلت بالعرش المغربى

والشعب المغربى ، وأودت بحياة خيرة أبناء المغرب مـــن الجنــود والعلماء والمفكرين الذين رافقوا ابا الحسن فى حملته على تونس . كان من عادة هذا الملك أن يأخذ معه العلماء كى يعظوا وينشروا العلـم والثقافـة ؛ وهو عمل سبق به ابو الحسن المرينى نابليون بونابرت حين اصطحب معه العلماء فى حملته على مصر اواخـر القرن 18 الميلادى .

عاش ابن خلـــدون فى تونس ظروف هذه الحملة ، وتتلمذ عـــلى بعض علمائها . واذا وضعنا شهادته موضع الاعتبار ولابد أن نفعل ذلك فاننا نجده ينص عـــلى أن نحـــو أربعمائة عالم معمم غرقـــوا بغـــرق الاسطول المغربى . وجدير بالملاحظة ان العمامة حينئذ كانت حلية الفقهاء والمتضلعين فى كل فن ، ولم يكن يجرؤ على لبسها غيرهم .

نعتقد أن أبا عنـــان حينما ثـــار للمحافظة على عرش والـــده الـــذى أشيع عنه أنه قتل فى احدى المعارك بتونس ، لم تكن نيته سيئة بادىء بدء . غير أنه لما عرف الحقيقة ، وجاءت الانـــباء الصـــادقـــة بغرق الاسطول ونجاة السلطان أبى الحسن كان الزمام قد أفلت من يدى أبى عنان ، وصعب عليه ـ ازاء المحيطين به والطامعين ـ أن يتراجـــع عـــن مناصبة أبيه العلاء والحرب معا . على أن أبا عنان كما تعلمون نـــدم على فعلته ندما شديدا فيما بعد .

ونتيجة لظروف قاهرة داخليـــة وخارجية ، بدأ الضعـــف يتطرق لسلطان المرينيين ، ويبلغ ذلك أقصى مداه ، عندما تنجـح اسبانـــيا فى ضم مملكة غرناطة المسلمة اليها ، وفى اكتشاف العالم الجديد (امريكا) على يد اكريستوبال كولـــون سنـــة 1492 م ، وفى تطلـــع جارتينـــا الشماليتين اسبانيا والبرتغال الـــى امتلاك اجزاء من اراضينا .

ويحتدم الصراع ويبلغ قمته فى معركة وادى المخازن سنة 1578 م فى

عهد الملك السعدى مولاى عبد الملك الذى ابدى من ضروب الشجاعـــة والنضال رغم مرضه ما تخـر لـــه الجبابر ساجدين . ولا يعنينا من نتائج هذه المعركة الا شيئان :

1 ـ ان البرتغال فقدت فى هذه المعركة ملكها وخيرة رجالها . كما خسرت اوربا كثيرا من ابنائها ؛ ثم فقدت البرتغال نتيجة لهذه المعركة هيبتها وسمعتها كقوة بحرية عظيمة كما خسرت استقلالها حيث ابتلعتها جارتها القريبة اسبانيا ، وضمتها الى مملكتها .

2 ـ ان المغرب خرج من المعركة كأقوى ما يكون ويتألق بريق التاج المغربى على هامة مـــولاى أحمـــد المنصور فيبهر العالم ، وتسارع الدول لتزجى التهانى بالنصـــر ، ولتقدم الهدايـــا ، ولتخطـــب ود الجالس على العرش ، ولتتحالف معه فى محاولة لصد اعدائها التقليديين

ويسود الرخاء واليسر سائـــر ارجاء البلاد ، خصوصا بعد اتمـــام غزو السودان الغربـــى ، وازدهـــار تجارة الذهب بين المغرب وبعـــض انحاء القارة السمراء

ويقضى المنصور السعدى الـــذى تلقب أيضا بالذهبى ، فيتنازع أبناؤه على العرش بشكل فظيع ، ويتسرب الضعف الى البلاد ، وتظهر فى الافق أسرة جديدة تتسلم مقاليد الملـــك وهى الاسرة العلوية المالكة الآن .

ازداد العرش العلوى توطدا فى أيام العاهل مولاى اسماعيل الـــذى ثبت حكمه لمدة تزيد عن نصف قرن من الزمان أخضع فيها المناوئيـــن ، واسترد معظم المراكز المغربيةالمغتصبة (المعمورة أو المهدية سنة 1681 م والعرائش سنة 1689 وطنجة سنة 1684 وأصيلة سنة 1691 . أمـــا سبتة ومليلية فقد شن عليهماحملات شعواء ولكن النجاح لـــم يحالـــف جيوشه ؛ وكذلك ظلت مدينةالجديدة فى يد البرتغال الى أن جررها حفيده

محمد الثاني .

من الاعمال التي أسهم بها مولاى اسماعيل - حماية للعرش والشعب - تربية الروح العسكرية القوية في الجيوش التي قام بتأليفها ، وخاصة جيش عبيد البخارى ، الذى لن اتعرض هنا لكيفية تأليفه ، ولا لسبب تسميته ، ولا الى طرق تنميته عددا وعدة ، ولا الى طرق تدريبه ، وانما أريد أن أركز بعض حديثي على ناحية من الموضوع هامة ، ذلك أن جيش عبيد البخارى بالمغرب كان بمثابة الحرس البريتورى الذى أنشأه الامبراطور الروماني أغسطس، والحرس التركي الذى أسسه المعتصم العباسي ، وحرس المماليك الذين استخدمهم الخلفاء الفاطميون بمصر فكل من هؤلاء الحرس أو الجند اصطنعهم الخلفاء أو الملوك بحسن نية ، وكل منهم صاروا ينمون قوتهم بالتدريج ، وكلهم لم يكونوا يتدخلون في السياسة أو الحكم في عهد الملوك الذين قاموا بتأسيس فرقهم أو تقريبها منهم . ولكن قوتهم تزداد وأمرهم يستفحل ، وتدخلهم في شؤون السياسة والملك يبدو واضحا بعد اختفاء اولياء نعمهم الاوائل عن مسرح الاحداث . وهكذا نجد أتراك العراق يولون ويخلعون من الخلفاء من شاءوا ويقتلون ويستحيون من أرادوا ، ومماليك مصر لا يلبثون أن يملكوا البلاد ، وزعماء عبيد البخارى في المغرب يؤثرون في سياسة العرش ويوجهونها حسب مبتغاهم .

يقول مؤرخ غربي : « ان جيش عبيد البخارى لو وجدوا من بينهم زعيما لأسسوا لهم بالمغرب ملكا عضودا » ولكنى لا أعتقد صحة هذه الامكانية . لانهم لو وجدوا ذلك ممكنا لما احجموا ولالتفوا حول أحدهم طوعا أو كرها وأعلنوه او أعلن نفسه ملكا على المغرب . بيد انهم كانوا يرون في قرارة انفسهم أن ذلك غير ممكن ، فالشعب المغربي لن يرضى بديلا بغير البيت العلوى فرع الدوحة النبوية الكريمة ،

والمغرب صار يتمتع بأنه أرض الخلافة منذ قرون ؛ وتقاليد الشعب وعاداته في الحرية واباء الضيم ، تأبى عليه أن تحكمه شرذمة من الآفاقيين مهما كثر عددها ، وقويت عدتها ، وحسن تدريبها . صحيح أن زعامة العرش المغربي أفلتت من أيدى الادارسة آل البيت مرة أو مرتين ، ولكنها فى كلتا المرتين استقرت في ايدى حكام مغاربة أو عرب اقحاح . وحينما عاد الشرفاء الى العرش المغربي منذ ايام السعديين ، استمر الملك بأيديهم ثم فى أيدى العلويين من بعدهم الى اليوم والى أن يشاء الله .

المهم أن زعماء جيش عبيد البخارى تدخلوا بعد وفاة مولاى اسماعيل فى شؤون السياسة والحكم ، فصاروا يجلسون على العرش من شاءوا ، ويعزلون من أرادوا ، ولكنهم قطعا لم يستطيعوا الاستئثار بالحكم الشرعى فى البلاد لان هذا ظل من حقوق ابناء مولاى اسماعيل وحفدته منذ ذلك الحين الى الان .

كل ما استطاع هؤلاء الزعماء أن يفعلوه ، هو ايجاد فترة من الاضطراب ما كان أغنى الشعب والعرش عنها ! ويدل على ذلك الاضطراب ما يلي :

1 ـ أن مولاى أحمد الذهبى الذى خلف أباه مولاى اسماعيل فى الملك تولى وعزل مرتين خلال سنتين (27 ـ28ـ1729)

2 ـ أن مولاى عبد الملك الذى خلف أخاه عند عزله لاول مرة ، ولى وعزل فى بحر سنة واحدة (1728) .

3 ـ أن مولاى عبد الله الذى خلف أخاه الذهبى تولى الملك أربع مرات ، وخلع كذلك أربع مرات .

4 ـ أن فترة الملك التى استغرقها أبناء مولاى اسماعيل السبعة دامت

ثلاثين سنة فقط ، أى بمعدل أربع سنوات وأربعة أشهر ونصف شهر لكل منهم .

ويستوى على العـــرش المغـربى سيدى محمد بن عبد الله (محمـــد الثانى) فيعود معه الاستقرار الداخلى والتفتح الخارجى ، ويسهم فى نهضة البـــلاد السياسيـــة والاقتصادية والتجارية والعلمية ، كما يسهم هو فى التأليف بنصيب وافر .

ولا يقل دور الحسن الاول عن دور جده محمد الثانى ، فقد أراد النهوض بالبلاد ، فبعث البعثـات الى الخارج لتعلم العلوم والفنـــون العسكرية ، غير أن ذلك لم يؤت أكله الطيب نظرا لعراقل داخلية وخارجية ونظرا لتألب السياسات الاوربيـــة على المغرب ، بغية اضعافه وتمزيـق وحدته ، وفرض الحماية عليه فـى النهاية .

لم يرض الشعب المغربى بهـــذا المصير ، فحمل السلاح دفاعا عن حريته ، ولكن الاستعمار بسلوكه سياسة التفريق بيـن العـــرش والشعب ، وبتظافر قواه استطـاع أن يسكت صوت الطلقات النارية ، وأن كان لم يقدر على اسكات صوت الوطنية الذى ظل مدويا فترة من الزمن . ومع ذلك فقد تعـــرض الوطنيون لسياسة القمع الرهيب ؛ وتعرضت مصالح الوطن ومقوماتـه الروحية الى الخطر المحقق .

وتشرف الحرب العالمية الثانيـة على نهايتها ، ويشد الشعب المغربى من عزمه ـ مساندا من العـرش ـ فيطلب الاستقلال رسميا سنة 1944 وتأتى زيارة المغفور له محمد الخامس لطنجة فى أبريل سنة 1947 لتثبت للعالم وحدة التراب المغربى من جهة والتحام المغرب العربى مع المشرق العربى فى السراء والضراء من جهة ثانية .

ويفتح المغفور له مباحثات مـــع فرنسا بشأن تحرر المغرب ، غير أن

هذه الدولة لم تستجب لشيء من مطالب الشعب والعرش في الحرية والاستقلال ، فتتأزم الحالة ، ويبلغ التأزم أقصى مداه في 20 من غشت 1953 فينفى الملك وولى عهده وسائر أسرته ، لانه لم يلب مطلب الفرنسيين في التنازل عن العرش أو التخلي عن مساندة حقوق الوطن والمواطنين ، فكان لسان حاله يردد ما قاله سيد البشرية منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا : « والله لوضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر أو أهلك دونه ، ما تركته » .

ويسرى نبا النفي بين طبقات الشعب سريان النار في الهشيم ، فتتأرق عيون ، وتتحرق افئدة ، شوقا لعودة حبيب الشعب ،ويحجب سكان الشمال ولاءهم عن الدمية التي أقامها الفرنسيون على عرش المغرب ، ويظلون أوفياء لملكهم الشرعي محمد الخامس ، يدعون له فوق منابر الصلاة ، ويحتفلون بعيد جلوسه على العرش يوم 18 نوفمبر من كل عام حسب المعتاد ، وفي مثل هذا البهاء والرونق الذي نشاهده في احتفالاتنا اليوم بعيد جلوس خليفته ووارث سره جلالة الحسن الثاني .

وبهذه المناسبة اذكر أني نشرت في عيد العرش الذي تلا حادثة النفي ، قصيدة تعبر عن مشاعر الشعب المستعرة ، وذلك تحت اسم مستعار (عينان) وفوجئت بحذف بعض ابياتها ، ولما سألت مدير الجريدة قال : انهم لا يريدون مس عاطفة الكلاوي أو كيوم . وبعد لاي وبحث متواصل بين الاوراق حصلت على تكملة القصيدة . ونصها :

عيد العرش الملكي

ملك البلاد المنتظر ... ها عيد عرشك قد حضر

والشعب بعدك ذاهل ... شاك يردد في كدر :

بطل الحمى عن عرشه ... متغيب ، يا للقدر !

لكنه متربع ... عرش القلوب المعتبر

★ ★ ★

كنا وليس مليكنا ... الا (ابن يوسف) ذو الاثر

حفظ السيادة حينما ... قد كاد يتلفها الغدر

والآن نحفظ وده ... ونصونه اليوم من دثر

الكل يعلم أنه ... ملء السماع مع البصر

والشعب يحسب رسمه ... من فرط حبه ـ في القمر

★ ★ ★

ملك يحب بلاده ... بحماسة ترمي الشرر

ويرى العلا متناول الـ ... ـيد بعد بذل مدخر

شهد الجميع بحزمه ... كمناضل يبغي الظفر

فأتى فرنسا مفاوضا ... ومسالما يجفو الضرر

لكنما هذي أبت ... الا العتو بلا خفر

فمشت تقود ركابها ... نحو الخراب أو الخطر

شاه الكـــلاوى انـــه — فى الغرب أشهر من غدر

خدع البـلاد وباعهـــا — بيع الرقيق أو البقـــر

تعس الكـــلاوى انـــه — لوقود نــــار تستعـــر

يشوى الكلاوى لفحهـــا — حتما كما يشوى القدر

او ليس فيه بشافـــع — كيوم سيده الخطـــر ؟

كلا ، فليس بشافـــع — أحد ، وموئله سقـــر

سيـــنال ثـــم جـزاءه — ان طال عهده او قصر(3)

★ ★ ★

أبنى الحمى هيا انفضوا — عن ردنـكم ذل الخـور

وتقدمـــوا بدمائكـــم — وبمالكم للمعتمــــــر

ضحوا بـــه وبتـابـــع — واستعملوا الناب والظفر

واذا تسلـــح دائـــما — فحقوقكم هى تنتصـــر

★ ★ ★

ملك البـلاد المنتظـــر — ها عيد عرشك قد حضر

والشعب عدك ذاهـــل — شاك يردد فى كـدر :

بطل الحمى عـن عرشه — متغيب ، يا للقـــدر !

لـكـنــه مـتـربـــع — عرش القلوب المعتبـــر

(3) كذا كانت عاطفة الشاعر ازاء من اتسم بالخيانة انذاك ـ ومعلوم أن الكلاوى استسمح المغفور له محمد الخامس بمجرد عودته من منفاه سنة 1955 ـ ومن تاب تاب الله عليه ـ

وتحققت أحلام العرش والشعب في العودة والاستقلال بعد الكفاح المستميت ، فبدآ مسيرتهما الجديدة في ميدان التنميــة الاقتصاديــة ، والنهوض العلمي ، وتوطيد أركان الاستقلال السياسي . وما زالت المعركة قائمة محتدمة ، بين التخلف وبين عناصر الشعب اليقظـــة ، يقودها قائد البلاد المحنك جلالـــة الحسن الثاني .

بعد هذا العرض المجمل لتاريخ العرش المغربي عبد العصور ، يجدر بنا الآن أن نقف وقفة قصيرة نحاول اثناءها أن نستخلص بعض خصائص هذا العرش ومميزاته :

اولا ـ العراقــة : وأول تلـــك الخصائص التي يتحلى بها العرش المغربي الاصالة ، فهو عرش عريق أصيل تمتد جذوره في تربة ما قبل الميلاد قرونا لا نعلم عددها بالتحديد ولكن الذي علمناه منها يعزز تلـك العراقة ويؤكدها . لقد اعترتــه فترات ضعف فحكمه حكام اجانب أو حكام وطنيون خاضعون للاجانب غير أن هذا لا يمنع من القول بان العرش المغربي ظل حقيقة ثابتة ، وواقعا ملموسا لا مراء فيه .

وليس العرش المغربي في هذا نسيج وحده ، فالعرش السكسوني الانجليزى مثلا احتله الدنمركيــون لفترة من الزمن (1013ـ1042م) ثم عاد الى السكسون أصحاب البــلاد الشرعيين ؛ ثم احتلـــه النــورمان بزعامة ويليم الفاتح سنة 1066 م لمدة 88 عاما وهكذا ، ومع ذلك ظل العرش الانجليزى انجليزيــا . وما تلك الفترات التي خضع فيها للاجانب الا سحابة صيف لم تلبث أن انقشعت

ويجدر بالملاحظة ان العرش المغربي أقدم العروش في العالم العربي ، ومـن أقدمـها في العـالم كلـه . هو أقدم من العرش الانجليزى مثلا حتى لو غضضنا الطرف عما قبل

الاسلام ، فعرش انجلترا الحالى بعود الى سنة 827 م فقط ، بينما العرش الادريسى المغربى تأسس سنة 788م أى أن العرش المغربى الاسلامى أقدم وجودا من العرش الانجليزى بتسع وثلاثين سنة .

ثانيا ـ الكفاح المستمر : من خصائص الشعب المغربى أنه شعب مكافح . وكذا العرش المغربى هو مناضل أيضا ، وبتأمل أوجه كفاحه نجده يأخذ أربعة اتجاهات :

أ ـ كفاح العرش من أجل الوحدة : حدث هذا زمن المرابطين بعد معركة الزلاقة التى تمخضت عن توحيد البلدين الشقيقين المغرب والاندلس ؛ وحدث زمن الموحدين حيث خرجت فكرة المغرب العربى الكبير الى حيز الوجود لاول مرة فى تاريخ استقلال المغرب عن المشرق

ب ـ كفاح العرش من اجل نشر الاسلام : وحدث هذا فى عهد المرابطين الذين غزوا الصحراء الكبرى بقيادة أبى بكر اللمتونى ، ثم فى عهد مولاى احمد المنصور السعدى عندما فتح السودان الغربى .

ج ـ كفاح العرش من اجل البقاء : ويتمثل فى عمل ملوك المغرب وسلاطينه على اخضاع الثوار الذين طالبوا بالعرش مطالبة غير قانونية ولا عادلة . وما كان اكثرهم على مر العصور !

د ـ كفاح العرش من اجل الشعب : ويتمثل هذا فى رد عادية المعتدى الذى كان يتربص بالبلاد الدوائر ، ويتضح هذا النوع من الكفاح فى معركة وادى المخازن ، وفى حروب استرداد الجيوب الساحلية المغتصبة من طرف عدة دول اجنبية .

ثالثا ـ التفتح : باستثناء القرن الماضى وأوائل هذا القرن اللذين تكالبت فيهما اطماع اوربا فى

اخضاع المغرب والاستئثار بخيراته ، فكان رد الفعل من لدن المغاربة أن حاولوا الانكماش على انفسهم ، وسلوك سياسة النعامة في اخفاء رأسها عن الصياد ، وهو منها قاب قوسين او ادنى ، أقول باستثناء هذه الفترة نجد العرش المغربي، ومن ورائه الشعب ، يسلك سياسة التفتح نحو الخارج ؛ فيجعل من نفسه ملاذا للحرية ، وملجأ للمضطهدين اينما كانوا . يدل على ذلك فتح مولاى ادريس الثاني صدره للربضيين مهاجرى الاندلس الذين اضطهدهم الحكم بن هشام الاموى حيث بنى لهم ادريس الثاني في عاصمته الجديدة فاس ، ما عرف بحى او «عدوة الاندلس» سماها هكذا لان هؤلاء المنكوبين استقروا بها واستوطنوها . وقل مثل هذا في «عدوة القرويين» التي استوطنها القادمون من القيروان ، وقل مثل ذلك أيضا في تقبل البلاط المغربي لموجات الهجرة من مملكة غرناطة بعد سقوطها . وفي افساحه المجال للاوربيين والمرتزقة كي يعملوا في خدمة العرش والشعب معا .

وتتغلب سياسة التفتح على سياسة الانكماش في مجلس شورى المنصور السعدى الذى عرض عليه رأيه في غزو السودان الغربي فرفض ولكن المنصور ما لبث يدافع عن فكرته . ويقرع الحجة بالحجة حتى اقتنع المجلس وتبنى الفكرة وعمل على انجاحها .

كان المسلمون قبل ان ينازلوا اعداءهم يعرضون عليهم أحد أمور ثلاثة :

1 ـ أن يسلموا

2 ـ او يدفعوا الجزية اذا أبوا الاسلام

3 ـ أو يأذنوا بحرب من الله ورسوله

بيد أن مولاى اسماعيل أحيى

سنة نبوية قديمة . فكاتب بعض ملوك أوربا يدعوهم الى الاسلام ، فاذا شرح الله صدرهم للاسلام فنعما هى ، والا دعاهم الى اعتناق المذهب البروتستانتى الذى كان أخف وقعا من المذهب الكاثوليكى وأكثر تحررا .

وهكذا كتب مولاى اسماعيل رسالة الى جيمس الثانى ملك الانجليز الذى أغضب شعبه ففر الى فرنسا ؛ كما كتب الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا وهو فى أوج عظمته . ولم أر فى المسلمين المعاصرين من سلك هذا المسلك لغير زعيم حزب « مصر الفتاة » احمد حسين ، حينما كتب لادولف هتلر زعيم المانيا ـ يدعوه للاسلام بينما كان هذا الطاغية يكتسح دول أوربا واحدة واحدة ، فتتساقط أمام جحافله فى الحرب العالمية الثانية ، تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف

رابعا ـ تنمية الرصيد الثقافى العالمى : لقد أسهم العرش المغربى بنصيب وافر فى التنمية الحضارية وفى اغناء الرصيد الثقافى العالمى، وذلك فى مختلف العصور . ويكفينا هنا أن نأتى بمثالين اثنين فقط :

يرجع أحدهما الى العصر الموحدى الى أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن الذى نجد فضله على الفلسفة كبيرا ، اذ انه هو الذى قرب ابا الوليد ابن رشد (الحفيد) وأشهره ، وأوحى اليه بشرح فلسفة أرسطو . ولا جدال فى أن جهود ابن رشد كانت السبب فى احياء الفلسفة عامة ، والارسطية منها خاصة وفى انتعاش تدريسها بجامعات أوربا والعالم قرونا متطاولة .

فلنستمع الى ابن رشد يقول : « لما دخلت على امير المومنين ابى يعقوب ، وجدته هو وأبو بكر بن الطفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يثنى على ، ويذكر بيتى

وسلفي ، ويضم بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحنى به أمير المومنين بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأيهم فى السماء ـ يعنى الفلاسفة ـ أقديمة هى أم حديثة ؟ فأدركنى الحياء والخوف ؛ فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ؛ ولم أكن أدرى ما قرر معه ابن طفيل . ففهم أمير المومنين منى الروع والحياء ، فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهـذا الشأن ، المتفرغين له . ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت فعرف ما عندى من ذلك .. »

ثم يقول ابن رشد : « استدعانى أبو بكر بن طفيل يوما فقال لى : سمعت اليوم أمير المومنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس ، أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهـذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا ، لقـرب مأخذها على الناس . فان كان فيك فضل قوة لذلك ، فافعل . وانى لارجو أن تفى به لما أعلمه من جودة ذهنك ، وصفاء قريحتك ، وقـوة نزوعك الى الصناعة وما يمنعنى من ذلك الا ما تعلمه من كبرة سنى ، واشتغالى بالخدمة ، وصرف عنايتى الى ما هو أهم عندى منه .»

قال ابو الوليد : « فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطو طاليس » . (المراكشى : المعجب فى تلخيـص اخبار المغرب ، تحقيق محمد الفاسى ص 147ـ148) .

والمثال الآخر يرجع الى العصـر المرينى ، يمدنا به السلطان أبو عنان المرينى الذى كان يقـرب العلمـاء ويشجعهم ونعتقد أن ابن خلدون

كان ثمرة تقريب أبى عنان ، وغرس يده . بل كان تلميذه ايضا كما اكتشفت ذلك اثناء اشتغالى باعداد رسالتى الجامعية .

يقول ابن خلدون فى كتابه : التعريف بابن خلدون (طبعة دار الكتاب اللبنانى ص 60-61) ما يلى: « وعاد السلطان ابو عنان الى فاس (يعنى عودته من تلمسان) ، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه ، وجرى ذكرى عنده ، وهو ينتقى طلبة العلم للمذاكرة فى ذلك المجلس ، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عنى ، ووصفونى له ، فكتب الى الحاجب يستقدمنى ، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين (أى وسبعمائة) ، ونظمنى فى أهل مجلسه العلمى ، وألزمنى شهود الصلوات معه ، ثم استعملنى فى كتابته ، والتوقيع بين يديه ، على كره منى ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفى . وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الاندلس الوافدين فى غرض السفارة ، وحصلت من الافادة منهم على البغية »

فهذا النابغة الذى تتلمذ على بعض علماء المغرب الذين رافقوا حملة السلطان ابى الحسن المرينى على تونس ، كان يتوق الى النزوح الى المغرب ، ولما جاءته دعوة السلطان أبى عنان لباها مبتهجا ، فانفتحت أمامه ابواب الامل والعمل ، واستفاد وأفاد بعد ذلك ، حينما انتج كتبه القيمة فى التاريخ والاجتماع وبذلك أسهم فى تنمية الرصيد الحضارى للامة العربية وللعالم أجمع .

وقبل أن أختم أريد أن أشير الى أن المغزى الاساسى من حديثى - كما لستم ذلك واستخلصتموه - هو التدليل على عراقة العرش المغربى وأصالته واتصاله واستمراره ، ولعل هذا ما رمز اليه جلالة الملك الحسن الثانى حين قرر هذا العام ان يحتفل بعيد العرش فى عاصمة

الادارسة ، كما رمز اليه اهل فاس بقرارهم الاحتفال بذكرى مرور اثني عشر قرنا على تأسيس مدينتهم ، مما يدل على أن العرش المغربي في

مختلف عصوره يكون وحدة واحدة، وكلا لا يتجزأ ، وقوة يحسب لها حسابها في التاريخ . وهذا ما يحق لنا أن نفخر به جميعا

عبد الله العمراني

استرجـــــاع

المخطوطات العربية من اسبانيا الى المغرب

بقلم : الحسن السائح

تطور الكتاب وفن الكتابة فى العالم بواسطة الثقافة الاسلامية ، وليس هذا مجرد ادعاء ، ولكن التاريخ يؤكد ان الكتاب لم يكن شائعا فى الحضارات **التي سبقت الاسلام** سواء كانت كهنونية كالفرعونية والبابلية ، أو كانـت مجوسية كالبودية والابرهامية ، أو كانت فلسفية انسانية كاليونانية . بل يكـن كذلك شائعا فى اليهوديـة والمسيحية لانهما ظلتا فى اطار الكهنـوتية **التى تستبقى المعرفة** سرا مكتوما لا يتاح للجميع ولا يعرفها الجميع أيضا . فكل هذه الحضارات لم تنشر المعرفة ولم تجعل من الكتاب وسيلة لنقلها ، فلما جاء الاسلام كان ثورة على الانحراف بكل اشكاله ومظاهـره وتحريـرا للفكر الانساني وتركيزا للشخصية الانسانية ولهذا انطلق من الدعوة الى المعرفة بواسطة القراءة ، وكان القرآن دستور المسلمين بل بداية تحرير العقل **والوجدان الانسانى على أساس العدالة** والحق والمساواة والاستقامة . ولهذا كان الاسلام ثقافة عامة ودينا فى آن واحد بينما لم تكن المسيحية واليهودية غير دينين فقط ، واذا كان الكتاب هو روح الحضارة الاسلامية فقد أصبح من السهل أن نعرف سر انتشار الكتابة وذيوع التآليف ونمو التراث المدون

في سرعة متلاحقة لا توازيها الا سرعة انتشار الاسلام وسرعة تدفق المتطلعين لمعرفة الاسلام عن طريق التعليم والدراسة والكتابة .

ومن هنا يبدو سبب كون (الكتاب) يمثل عنصر الثقافة التى هى نتاج الفكر والعاطفة ولغة الحوار الاجتماعي والانسانى ، والخلفية التى تظهر من ورائها معطيات الحضارة المادية المتشخصة فى العمران والبناء والهندسة والفن أو الموسيقى وما تلفه المدن من منشآت ومنازل وتخطيط . فالحضارة هى الشكل المادى والاطار الظاهر الذى تحركه المادة الرمادية السارية وراء كـل حركة ووضع وقالب تلك الهيولى التى لم تكن غير الثقافة ، وتلك الثقافة التى لن يسجلها وينشرها ويذيعها غير الكتاب !! وأصبح حتما ولا مناص عـلى كل من اهتم بالاصلاح والتوجيه والبناء ان يصرف جهده الى تنمية الكتاب واشاعته ، وهذا ما لم تعرفه الحضارة المسيحية او اليهودية الموازيتين لخط الحضارة الاسلامية ، واللتان كانتا تسيران وفق نهج القيادات التى تستأثر بالمعرفة وحدها ولا تبيحها لاحد من الناس .

ويتفق المؤرخون على ما بذل المسلمون من جهد بواسطة الكتاب لتطوير الحضارة الاسلامية وتلقيحها منذ عهد بنى أمية فى المشرق الى (دور الحكمة) التى جمع فيها الخلفاء ما وقفوا عليه من كتب فارسية وهندية ويونانية ، دون ان نغفل حركة الترجمة فى عهد المنصور من قبل ذلك ، وحركة الترجمة فى عهد المامون من بعد وبيت الحكمة فى القيروان والاندلس ، بالاضافة الى التصنيف والمواد الاسلامية المستحدثة والتى تبعث فى طبيعة الفكر الاسلامى ذاته ، وقد ظهرت تقنيات لكتابة الكتب ونشرها واذاعتها ، او ما كان يسمى بالوراقة حيث انتشر الورق والوراقون والنساخ ، وظهرت صناعة النسـخ وضمت اليها مآت المختصين سواء فى الخط او أدوات النسخ او وسائـل

النشر واشاعت الكتب واماكن بيعها ودور الخزائن للمطالعة والدراسة وقراءة الكتب العلمية او الدينية او الهزلية او القصصية الخ ..

وهكذا اصبح (الكتاب) عند المسلمين (وبالاخص في العواصم الحضارية المعروفة) تجارة ناجحة ماديا ، ووسيلة لنشر العلم والثقافة والمذهبية فى هذا العالم المتوثب الجديد المواجه لعالم مسيحي يسوده التعصب الدينى والاثرة العلمية ، وتنتشر فيه الامية ويخاف كهنوته من الكتب والاوراق ، فلا بدع أن نرى المسيحيين كلما انتصروا في احدى معاركهم المواجهة ، واحتلوا احدى المدن الاسلامية الا بادروا تعصبا باتلاف الكتب واحراقها وابادتها كما نرى اليوم في الدول الحديثة التي تقاوم الغزو الفكرى بهذه الاساليب . ولهذا كان المصلحون والمفكـزون فى العالـم الاسـلامى يشفقـون عـلى مصير الكتاب لان (ابادة الكتاب) هى ابادة للثقافة ، وهى ردة وانتكاسة الى الوراء وهى هزيمة الاجيال بل اكثر ضراوة واشد وقعا من هزيمة الاجناد وسقوط المدن والعواصـم .

وقد كانت حروب الاسترجاع الاسبانية في الاندلس تبيد الترات الفكرى فى تعصب مقيت عانت هى نفسها فيه تأخرا وانحطاطا فى الاندلس مقترفةجناية وجريمة لا يقدم عليها الا الحمقى من المتعصبين ، على أن بعض العقلاء (من الرهبان المتحررين فكريا) او من المدنيين المتحمسين احتفظـوا بعديد مـن الكتب فى الاندلس فى مختلف فروع المعرفة واعتقد ان كثيرا من العائـلات الاسبانية المسيحية احتفظت بخزائن تضم كتبا عربية اشفقوا عليها من لهيب النيران فصانوها بمظهرها الجمالى وبخطوطها الفنية حتى اذا انطفأت حمية المتعصبين تجمعت كثير من هذه الكتب فى الكنائس والاديرة ولم يكن بها الا كتب عربية وقليل ما كتب باللاتينية واليونانية وغيرهما للاسباب التى ذكرناها ، ولم يلبث هؤلاء المثقفين ان اقبلوا على هذه الكتب بالدرس والشرح

والتحليل فترجموا بعضها واحتفظوا ببعضها كذلك ، واصبحوا بعد ان عرفوا قيمة هذه الكتب يتطلعون اليها فى البلاد المغربية بالشراء والاختلاس وأخذ المسيحيون يبحثون عن الكتب الاسلامية عندما عرفوا مكانتها وقيمتها الفكرية، وهكذا ورد المستشرق الهولاندى كوليوس فى بعثة هولاندية أيام السلطان زيدان السعدى سنة 1032 هجرية حيث اقتنى عدة مخطوطات نعرف من جملتها كتاب المستعينى لابن بكلش يوسف بن اسحاق المؤلف سنة 500 هـ وهو كتاب فى الطب والمداواة ألفه للمستعين بالله بن محمد بن هود ، كما نعرف أن المستشرق المتمشح كان يتجول فى عواصم افريقيا الشمالية باحثا عن كتب التصوف والفلسفة ، والتى ظهر اثرها واضحا فيما ألفه فى التصوف من كتب دالة على اطلاعه وتأثره بالتصوف المغربى وبالاخص بالشادلية .. ومن ذلك العهد أخذ ملوك الغرب المسيحى يقدمون لملوك المغرب هدايا من الكتب الاسلامية .. ويذكر ابن خلدون (ج 3 ص 2) وتاريخه أن الطاغية الفشتالى (صانش) صانجة اهدى لسلطان المغرب يعقوب بن عبد الحق المرينى بتاريخ 15 ربيع الاول 684 هـ ثلاثة عشر جملا من الكتب الاسلامية .. ولعل هذه أقدم محاولة نعرفها حول استرداد المخطوطات من الاندلس ، وهى هدية تعبر عن مدى معرفة المسيحيين لتعطش المسلمين لتراثهم الفكرى .

غير ان الهزيمة الاخيرة فى غرناطة لم تكن نهاية مأساة العالم الاسلامى فى الاندلس ، ولم تكن الثمن الذى دفعه لقاء انتصاراته المظفرة وازدهار حضارته وعطائه بسخاء وكرم ، بل ان هذه الهزيمة كانت بداية وقوف الثقافة الاسلامية والحضارة الاندلسية المغربية على شفا الانهيار . واذا كان المغرب هو البلاد الذى شعر بآثار النكبة وتحمل نتائجها فقد انطوى على نفسه باحثا فى اعماق وجدانه عن الخلاص ، لذلك لا بدع ان تنهزم السلفية العلمية والخلدونية والثقافية الايجابية الفقهية والفكرية والفنية لتحل محلها ثقافة

منهارة أشبه ما تكون بعويل اليتامى أمام الفاجعة الكبرى . ثم لا بدع أن يبقي التيار الفكرى فى المغرب باحثا عن مصادر الثقافة العربية فى الكتب الضائعة فى الاندلس ، والتى كان المغرب يتلهف عليها فى جامعة (سالرنو) و (سلامتكا) وغيرهما من الجامعات الاوربية التى تعرفت على كتب الفارابى وابن رشد وابن باجة واطباء المغرب كالزهراوى وابناء زهر ، تلك الجامعات التى استمدت من كتب الفقه الاسلامى تحريرا للاقتصاد الغربى الذى كان يخضع للتوجيه المسيحى العقيم ، ومن الفلسفة الاسلامية مادة جديدة لحركة الفكر . ومن الادب العربى فروقا وتجربة لتحرير الفكر واللغة ولسنا بصدد شرح أثر هذا التراث فى البعث الغربى فهذا موضوع آخر ، وهو معروف بشىء من الحماس بالنسبة الينا ، وينبىء من نكران الجميل بالنسبة للغرب.

على أن هذا العطاء لم يمنع الغرب بعد هزيمة غرناطة ان يتجرأ على المغرب ويسير فى خط الاعتداء على الشاطىء الغربى ، ومحاصرة لاسطوله كلما تحرك خوفا من يقظة المغرب ، وبما أن المغرب الذى كان يعانى تمزقا داخليا بعد هزيمة الاندلس طيلة عصر الوطاسيين وعصر السعديين رغم انتصاره العظيم فى وادى المخازن ، (ذلك الانتصار الذى لو استفاد المغاربة من نتائجه لحققوا نتائج باهرة) فان المغرب كان كذلك يعانى الانهيار الثقافى، ذلك الانهيار الذى حال دون الاستفادة من النصر العسكرى . ورغم ذلك كله فان عاملا جديدا ظهر فى المغرب وهو (البعث الدبلوماسى) لمقاومة الزحف الغربى . ذلك ان الديبلوماسية المغربية تطورت نتيجة التطور الاقتصادى فى أوربا كلها ، حيث نشأت فيها البرجوازية بعد عصر الاقطاع تبحث عن المواد الخام ، وبلاد جديدة للاستعمار ، كما أن اكتشاف امريكا الذى اعقبه (نشأة الولايات المتحدة) والعلاقات بين أوربا وبين هـذه القـارة واستيلاء البرتغال والانجليز على عدة جزر وسواحل فى افريقيا وآسيا ؛ خلق كل ذلك

جوا من الحوار والتنافس بين المغرب والدول الاوربية لان المغرب ظل الطريق الى آسيا وافريقيا ، كما كان مركز الصادرات والواردات ، وبالاخص بعد عصر المنصور الذهبي الذى جعل من التبادل بالشكر أساسا لعلاقات سياسية مع عدة دول أوربية ، بالاضافة الى أن الاندلسيين الذين غادروا أرضهم لم يكونوا ليستكينوا الى الاستقرار والخنوع ، وانما عبأوا اساطيل للجهاد ظلت تواجه القراصنة الاوربيين الذين يتعقبون قوتهم

وكان هذا بعد تدهور السعديين ، وقبل ظهور الدولة العلوية ، ففى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المغرب ظهرت امارات واقطاعات متعددة ، واصلت علاقاتها بالماليك الاوربية رغبة فى شراء الاسلحة وتقوية نفوذها ، كما أن أوربا رأت تلك وسيلة لاثارة الفتن واتلاف الوحدة المغربية ، كل هذا ضرب حول المغرب نطاقا من الحروب البحرية التى كان من نتائجها اسر كثير من المغاربة ونفيهم الى أوربا ، وأسر كثير من الاوربيين فى المغرب ، وفى كتاب السر (مويط) تفاصيل عن حركة الاسار هذه . والذى يهمنا أن الاسرى كانوا من مطلق الجنود والبحارة ، وأحيانا من الكتاب والمفكرين ، كما وقع لأبي القاضى وللوزان ، ولغير هؤلاء مما يدخل فى (تهجير الادمغة) كما نقول اليوم ، وأحيانا أخرى كان يقع الاسر للكتب والانتاج العلمى ، ومن ذلك ما يذكر دوكاستر (فى الجزء الثانى ص 106 من السلسلة الاولى عن هولاندة من أن زيدان السعدى حين انتصر عليه ابو محلى غادر آسفى الى مرسى آكادير (سانت كروا) فأكترى فى شهر جوان (1612) باخرة (الكسطيل جان فليبى دوكاستيلا) ليذهب الى فرنسا ويلتجىء عند الملك لويس الثالث عشر وحملها أولا أمتعته ولكن الباخرة فرت بسرعة من الشاطىء فى طريقها الى فرنسا محتفظة بما فيها من صناديق الكتب العديدة من خزانة زيدان السعدى غير أن السارق سرق للمرة الثانية ذلك ان سفينة قرصانية اسبانية هاجمت الباخرة الفرنسية واخذت الكتب والامتعة . وكان عدد الكتب حسب ما يقول (دوكاستر) يتجاوز ثلاثة آلاف مجلد . وقدموا ما اختلسوه الى فليب الثالث ملك اسبانيا الذى سنرى فيما يأتى انه قدمها (للاسكوريال) وقد اثارت هذه القضية ضجة فى المغرب ، وكتب زيدان السعدى الى حكومة هولاندة فى الموضوع للتدخل ، وبعث بسفيره قاضى

تارودانت الجزولى وناصر مرطة الى فرنسا عن طريق هولاندة (للتفاوض فى هذا الموضوع) ، واذا كان المغاربة شعروا بعظيم الخسارة بفقدهـــم للتـــرات الفكرى ، فان المسيحيين (من سقوط غرناطة الى عهد زيدان السعدى) تطورت عقليتهم ، وانقلبت من عقلية متعصبة ضد الثقافة والتراث والفكر الاسلامى ، الى عقلية متعصبة ضد المسلمين فقط ، ولهذا فقد استفادت من انتاجهم ، ولهذا أيضا فان الخزانة العظيمة التى اقتناها المنصور ونماها ولده زيدان ، كانت ثروة لا تقدر بثمن ، ولا أدل على ذلك ما أن زيدان جمع هذه الكتب عندما دقت ساعة الخطر وحملها الى آسفى لتنقل فى باخرة أجنبية الى اكادير، بيد أن القراصنة (الاسبان تعرضوا لها (كما قلنا) واغتصبوا الكتب وبعثوا بها هدية الى الملك (فليب 2) الذى كان يشيد ديرا عظيما للقديس (لورينو) فى الاسكوريال ، فقدمها كأثمن هدية لرهبان الدير المتخصصين فى التراث ، وملأت هذه الكتب (باضافة كتب أخرى) خزانة الاسكوريال ، وأمر البابا أن لا يخرج أى كتاب منها نظرا لقيمتها العلمية ، ولست أشك أن هذه الكتب المغصوبة كانت تؤلف جزءا من كتب عربية أخرى متفرقة بعدة أديرة فى الاندلس ، اذ أن من عادة الاديرة أن تحتفظ بالكتب العلمية ، وبعد عصر السعديين عاش المغرب تمزقا سياسيا خلال الحقبة التى أعقبت موت المنصور وظل يتحسس طريقه حتى برزت أخيرا انتصارات المولى محمد الاول ، والمولى الرشيد ، ثم جاء المولى اسماعيل (1672 ـ 1082هـ) 1727 ليحقق للمغرب أمنا داخليا ووحدة سياسية وانتصارات عسكرية وديبلوماسية يرتكز كل ذلك على أساس ثقافى ، وفى ميدان البعث الثقافى (وهذا هو الذى يهمنا) صرف الاهتمام الى تشجيع العلم والعلماء والتأليف ، ونشر المعرفة حسب الوسائل المتعارفة آنذاك ، واعتمد على الكتاب والفكريين في عصره .

واذا كان على المولى اسماعيل أن يبذل مجهودا ديبلوماسيـــا لتحريـــر

الاسرى من السجون والمنافى فقد كان عليه كذلك أن يبذل مجهودا ديبلوماسيا آخر ليحرر (الكتاب) العربى من اقفاص الكنائس وأديرة الرهبان . ويجدر أن ننبه أن كلمة **(مخطوط)** لم تكن بهذا المدلول الجديد فى ذلك العصر ، ذلك لان المخطوط انما يعنى اليوم (أوراقا قديمة لكتب قديمة أكلتها الارضه، نقرأها لمعرفة إخبار مضت ، أو تسجيل أفكار ظهرت فى ذلك العصر أو نظريات علمية أو فنية كانت متعارفة . أما فى هذا العصر ، فقد كان المخطوط يعنى (الكتاب) فقط اذ لم تكن هناك كتب مطبوعة ، وأخرى مخطوطة ، وانما كانت بكل مفهومها المتعارف اليوم، تحمل الافكار الحية المطبوعة بالمعاصرة، وهى الرصيد الحقيقى للتطور الحضارى ، تتوقف كل تنمية للثقافة والفكر على الانطلاق منها ، والسير فى اتجاهها ، فنحن أمام كتب تعنى (فى الواقع) الانتاج الفكرى والوجداني ، وتعنى لباب الحضارة الاسلامية ، كما تعنى آخر مرحلة فى التطوع المستمر الذى بلغته هذه الحضارة قبل أن تصاب بنكبة الحروب الصليبية ، ويقف فى وجهها تيار جامد متعصب ضد المعرفة يسعى جاهدا لابادتها وتفويتها ، ونحن كذلك أمام بلاد مسيحية انكرت هذه الحضارة الاسلامية وخشيت فى هذه الكتب أن تصيب اتباعها بثورة فكرية تقف ضد الكنيسة ، ولكن مع ذلك أخذت تدرس الكتب الاسلامية وتترجمها وتستفيد منها فى كبرياء وصلف ونكران جميل ، ولاشك أن العالم الاسلامى الذى فقد ثروته الفكرية وكتبه العلمية كان يقف على عتبة الانحدار لان (الكتاب) هو الوسيلة الاساسية للبناء الحضارى وطريق الاستمرار الى التقدم ـ وقد ضاع منه الكتاب بالحرق والاختلاس والاغراق ؛ فكان على المصلحين أن يبذلوا الجهد **لانقاذ** الكتاب حتى ينطلقوا من جديد بعد توقف حضارى ، وجمود فكرى دام أكثر من قرنين ! وفى عهد المولى اسماعيل بدأت هذه العملية ديبلوماسيا ، ويذكر ابن زيدان فى كتابه عن الذيبلوماسية فى عصر العلويين أن كارلوس الثانى ، ملك اسبانيا بعث الى المغرب السفير

(منويل بردلون) والسفير (ابيل مسيح) فأجابه السلطان على ذلك بتوجيه كاتبه حم بن عبد الوهاب الغساسي سنة (1101) وكانت مهمته استخراج الاسرى والكتب الاسلامية الباقية في الاندلس ، والتي كان العلماء والكتاب في المغرب يلحون في عودتها .. وألف الغساني في هـذا الموضوع (رحلته المشهورة) والغساني هذا هو عبد الله بن محمد المدعو حم بن عبد الوهاب الغساني المتوفى (1119 هـ ـ 1707م) مؤلف (رحلة الوزير في افتكاك الاسير) (وهي مطبوعة بطنجة ـ 1940) مع ترجمة اسبانية وظل المولى اسماعيل يجمع الكتب جهد المستطاع لتكون رهن يد العلماء حتى توفرت له خزانة عظيمة ، وقد ذكر الزرويلي في كتابه (سنن المهتدين) في ترجمة الوزير اليحمدي أن للسلطان اسماعيل خزانة كتب فريدة لانظير لها .. ولم يتم السلطان عمله ، واعقبت موت المولى اسماعيل فترة طويلة من الفتن والتطاحن بين الاخوة على الحكم ، حتى أن سبعة من ابنائه جلسوا على عرش المملكة ومنهم من خلع عدة مرات ، في ظرف ثلاثين سنة ، ولم تستقر البلاد حتى تسلم العرش المولى محمد بن عبد الله المولود سنة (1134 هـ والمتوفى 1171هـ) ، الذى عمل عـلى تحويل الاتجاه الدراسي الى (الايجابية) بدل السلبية الثقافية المنتشرة في هذا العهد لعدة اسباب فأصدرت مرسوما بذلك (جاء نصه في مفاخر الدولة العلوية) وتتلخص نظريته الاصلاحية في الدعوة الى السنة والقرآن ومناقشة النصوص ، وضبط الغريب وبيان المشكل من الآثار الدينية والأدبية والابتعاد عن الخوض في المنطق والفلسفة ، وكتب غـلاة الصوفية تعقد مجالـس للمناظرات ، وهي حسب ما روى الزياني تضم نخبة من رجال الفكر آنذاك كالغربي ومحمد بن مير والرشدي وابو خريص والتهامي بن عمرو وفي كتاب آكنوس (الجيش العرمرم) وكتاب أقطاف الازهار من حدائق الآثار توضيح لعمل هذه النوادي والمجالس العلمية .. وقد ذكر المرسوم (الذى لخصه ابن زيدان عن التاودي بن سودة) الكتب التي تجب دراستها ، ولهذا فقد انصرفت

الهمة الى احياء التراث عن طريق تعلمه ، ولهذا لا بدع أن نرى المولى محمد بن عبد الله يهتم بالكتب الاسلامية في الخزائن الاسبانية ويجعلها من وكد عمل السفراء الذين يذهبون الى اسبانيا ليحـــرروا الاســـرى المسلميـــن ، ويتفاوضون فى التبادل بينهم وبين أسرى الاساطيل المغربية ، وفى نفس الوقت يبذلون الجهد لاجتلاب الكتب الاسلامية من الاندلس ، واذا كانت كتب الرحلات السفارية تلمح الى ذلك ، فانها كعادتها لا تذكر التفاصيل ، ولا نتائج المساعى الا بشىء من الاقتضاب ، وأشهر السفراء المعنيين بهذا العمل هم : أبو العباس احمد بن المهدى الغزال فى رحلته الى بلاد الاسبان المسماة نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد) وهى سفارة بأمر السلطان محمد بن عبد الله لافتكاك الاسرى ، وكانت سنة (1179هـ ــ 1766م) طبعت بتطوان سنة 1941 بتعليق الفريد البستانى . وكانت هذه السفارة الى (كارلوس 3) حيث تكلف السفير بقضية الاسرى من المسلمين ، ودفع الصلة اليهم ، وأتيحت للغزال فرصة التجول فى اسبانيا باحثا عن المسلمين ، منقبا عنهم فى مختلف المدن والقرى ، واستجابت حكومة اسبانيا الى كل مطالب المغرب ، ولذلك أمرت باطلاق سراح الشيوخ والمعطوبين ، ورجع الى المغرب ناجحا فى مهمته صحبة سفير اسبانيا ، وهكذا توجه الغزال فى سفارة ثانية لاسبانيا ، ونظرا لما يبديه من لباقة وكياسة فقد استجابت الحكومة الاسبانية لرغبته فى أخذ الكتب كما سأذكره فيما بعد أو أطمعته فى الكتب لتدس التحريف فى وثيقة المعاهدة ؟! ثم توجه كذلك لنفس المهمة ابن عثمان (سنة 1193هـ) 1779م) الى ملك اسبانيا كارلوس الثالث لتجديد الصلح بين المغرب واسبانيا ، ولافتكاك الاسارى الجزائريين المأسورين فى اسبانيا ، وابن عثمان هو محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المعروف بالمكناسى المولود فى القرن الثانى عشر (18م) بمكناس والمتوفى سنة 1212هـ ــ 1798م ، توجه الى اسبانيا مرتيـن وألـف رحلتين : الاولى (الاكسير فى فكاك الاسير) سنة 1194هـ ــ 1780 م ويذكر فى

هذه الرحلة اطلاعه على الكتب العربية ، وقال ان مضيفيه أطلعوه على مدارج أخرى فوق خزانة كتبهم ، بها خزانة كبيرة وصفها بقوله فى غاية النظافة والصون ، بها كتب المسلمين رحمهم الله ، التى بقيت بايدى الكفرة ، وهى عندهم فى غاية الحفظ ، لايمكن لاحد أن يدخل الى تلك الخزانة كائنا من كان ومكتوب على باب الخزانة بخط أعجمى ما نصه : امر البابا أن لا يخرج أحد من هذه الخزانة شيئا ، ومن اعتناء الطاغية بنا فتحوا لنا الخزانة بأمره ، فأرونا كتب المسلمين ، وعددها الف وثمانمائة سفير (1800) فيها نسختان من المصحف الكريم ، وعدة تفاسير جلها حواشى ، وكثير من كتب الطب ، وقد طالعت ما سمح به الوقت مع ضيقه ، فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الاحزاب بقوادى نارها . ورحلة الغزال هذه هى (الاكسير) وهى الرحلة الاولى لبلاد الاسبان ، وكانت ضائعة حتى عثر عليها الاستاذ ابراهيم الكتانى بخزانة تمكرورت وطبعها الاستاذ محمد الفاسى كما فى دليل المؤرخ لابن سودة

ونتساءل الآن عن نتائج جهود السفارة المغربية فى هذا الموضوع ؟
ان من المألوف فى الديبلوماسية المغربية أن تظل كل القضايا فى طى الكتمان ولا تسجل الا فى التقارير الرسمية التى لا يطلع عليها أحد ، وتحتفظ بسرية تامة ، وهى فى غالب الاحيان تؤثر المشابهات والكلام بدل الكتابة ، ولهذا فان سفراء المغرب فى رحلاتهم لا يتعرضون بالضبط لمهماتهم السياسية والرحلات التى يكتبونها هى الى المذكرات الشخصية أقرب منها الى تسجيل الاحداث والوثائق ، ولهذا فقد كانوا طبعا يبحثون قضايا الاسرى فى طليعة الامور و (جدول الاعمال) ثم ينقلون الرغبة فى نقل التراث المؤلف المكتوب الذى يتعرض المتعصبون فى الاديرة والجامعات لمنعه من التفويت وارجاعه الى أهله ، والواقع أن السفراء المغاربة قلما لم يوفقوا فى ذلك ، اذ أنهم تهزهم عواطفهم الدينية الى بذل ما فى الوسع لاستخلاص الكتب المقدسة ككتب

القرآن والحديث ، بدليل وجود عدد من النسخ في المغرب المكتوبة بخط اندلسي ، والتي تدل كثرتها وتنوعها وتفارظيها على أنها مستجلبة ، كما انهم أثناء المفاوضات في هذا الموضوع يحصلون على جزء من هذه الكتب التي لا تتوفر على قوائمها (بكل اسف) ولو أن الخزائن المغربية كانت (في هذه الحقبة) تهتم بالقوائم لأمكن ان تتعرف على هذه الكتب ، على أن لدينا نصا من رحلة (الغزال) يتكلم فيه عن الكتب التي جاء بها من الاندلس في عهد المولى محمد بن عبد الله فقد وصف الغزال في آخر رحلته دخول موكب سفارته الى مراكش مرجفا بالاسرى الذين استخلصهم من اسبانيا بتاريخ 3 عيد الاضحى عام 1180 هـ ـ ووصف ذلك بقوله : و .. ذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا بثلاثمائة من الاسارى المرجين **على يد سيدنا الكريمتين،** رجالا ونساء وصبيانا ، وجعلنا على رأس كل واحد من الاسارى كتابا من كتب الاسلام التي انقذها الله من بلاد الكفر ببركة مولانا المنصور بالله ، المتخلفة عن عمارة العدوة من المسلمين من مصاحف وكتب الحديث والفقه وغير ذلك، ثم ذكر أنه كان يتبع الاسرى المذكورين الرجال والبنين قائلا : «وفي اثرهم النسوة والبنون ، والكل يعلن بنصر مولانا ايده الله ، واطلقت النسوة الزغاريد ، وقد ضربت عليهن وعلى الجميع النوبة ، وسرنا على هذه الحال الحسنة وكل من شاهد اسارى المسلمين وعلى رؤوسهم كتب الاسلام بادرته العبرة من شدة الفرح ، وصار يدعو لسيدنا بما نرجو من الله قبوله .

واخيرا نتساءل عن مصير هذه الكتب ؟؟ ولست أشك أنها بقيت في خزانة مراكش وفاس ومكناس ، واحتفظت بعض عائلة الاسارى بهذه المخطوطات .. ومع الاسف فان البلاد دخلت الى عهد التمزق من جديد وبدت طلائع الاحتلال في دسائس المستعمرين الذين اخذوا يتواردون على بلادنا بحثا عن المواد الخام ، وأسواق الاستهلاك وارض الاستعمار ، فزحفوا من كل

صوب يتقدمهم الراهب مبشرا بالكفر ، والجندى مدوخا بالنار والحديد ، والمعلم ليلقن الناس لغة جديدة وثقافة غربية وليفوت علينا ثقافتنا وحضارتنا! ونجح الاستعمار الى حين ، ولكن المغرب الاصيل حرر شخصيته سياسيا ، وهو يحررها الآن اقتصاديا وثقافيا .

وبعد فقد مرت ثقافيا منذ القديم بمراحل عدة ولكنها واضحة متميزة فى المراحل الاتية :

1) مرحلة الخلق الثقافـى .

2) مرحلة التدوين والتأليف والنشر والاشاعة .

3) مرحلة (الابادة) التى تعرضت لها على أيدى المتعصبين .

4) مرحلة **(جلب التراث)** الى المغرب واسترداد الكتب .

5) ومرحلة جديدة نعيشها الآن) وهى احياء التراث بالبحث عنه فى الخزائن وتحقيقه ونشره وتلخيصه والاستفادة منه ، وهذه المرحلة تتسم بمظهرين (مظهر الاحياء) كما قلت ، ومظهر تلقيح التراث بالمعطيات الفكرية الحديثة والتطورات التى وصل اليها العقل الانسانى لتصل الحاضر بالماضى لا على أساس احياء الذكريات ، ولكن على أساس البحث عن الذات لنخلق ثقافته انسانية جديدة تعتمد :

علما ينفع ولا يضر

وقلبـا يمـلأه الحـب .

وتصالحا بين العلم ومصلحة الانسان .

وتسابقا الى تحقيق العدالة والرفاهية والاخاء .

وسلاما حقا لايفرق بين اللون والجنس والعنصر والمكان

الحسن السائح

النـوروز بيـن الامس واليـوم

بقلم : عبد الكبير الفهرى الفاسي

النيروز أو النوروز أكبر أعياد فارس العرب قديما قبل الفتح الاسلامى أو بعده وايران اليوم . وينطق به الايرانيون نوروز بضم الاولين أو بفتح النون . والكلمة مركبة من « نو » ومعناها الجديد وروز ومعناه اليوم(I) أى اليوم الجديد ، وهو مستهل السنة الجديدة عند الايرانيين . والسنة عندهم اثنى عشر شهرا ، ويتكون كل شهر من الستة أشهر الاولى من ثلاثين يوما ، وتكون الأشهر الخمس الموالية ذات ثلاثين يوما ، والشهر الأخير يكون من 20 يوما أو ثلاثين ، تبعا للسنة اذا كانت كبسية أم لا

وهذا التقسيم متواضع عليه منذ أن صدر فى شأنه مرسوم من البرلمان الايرانى ، وسواء روعى التقسيم المذكور أو لا ، فان السنة الايرانية تبتدىء يوم 2I من شهر مارس الميلادى ، ويكون منتهاها فى يوم 2I من شهر فبراير، أى الشهر الثانى من السنة الميلادية .

(I) وروز تدخل فى تركيب عدد من الكلمات ومنها رزنامة .

ويوم 21 مارس هو يوم دخول فصل الربيع ، فيكون النوروز عيدا للربيع وعيدا لاستقباله بأنواع الزينة وألوان الفرح . ومن من الأمم لا يفرح بقدوم الربيع سواء فى الشرق أو فى الغرب حسب موقعها من الكرة الارضية؟

والامم كلها تعتبر الربيع موعدا لتجديد الطبيعة وخلعها جلابيب فصل الشتاء ، بما فيه من برد قد يقسو على الضعفاء وغير الضعفاء ، وتتساقط فيه الثلوج ويعم الغيم ، كما ينتشر السحاب وتتهاطل الامطار وتهب الزوابع فتعم البر والبحر ، وتتلف الأرواح والأرزاق ، وكل ذلك عناصر تتنافى مع ما يصبو اليه الانسان من حياة معتدلة فلا يتحمل قساوتها وشدتها الا على مضض ان هو تحملها ، وتكون الطبيعة ـ خصوصا فى المناطق الباردة التى تتهاطل فيها الثلوج كأنها راكدة ان لم تكن نائمة بنباتها وببعض حشراتها وحيواناتها ، فينعكس ذلك على حياة الانسان والحيوان ولا يتحرك منهما الا لضرورة العيش والكسب ، ودفاعا عن النفس ، ومنها من لا يتحرك ويبقى ملازما مساكنه أو أوكاره

فاذا استقبل الاحياء الربيع ، استقبلوا فرصة جديدة للتملى بها فى الحياة من أطاييب ، وما فيها من مباهج ، وهم فى غاية ما يمكن أن يكون الانسان من فرح وجذل ، مستبشرين بالأمل وحياة طرية جديدة ، يغمرها الدفء وضياء الشمس ، مما يشرح الصدر ويملأ الابصار نورا . فلا غرو اذا رأينا قدماء الفرس كغيرهم من الشعوب القديمة والحديثة يستقبلون الربيع استقبالا يجعله عيدا مميزا على غيره من الاعياد ويبتهجون فيه بأنواع الابتهاجات .

ويغلب على المؤسسات الانسانية ـ ومنها الاعياد ـ ان تكون تعبيرا

للتجاوب بين أهل البلد ومناخ البلد وطبيعته ، فهم الذين يكتوون بحره وقره . فإذا عرف الانسان طبيعة ايران اليوم وفارس الامس ، وما هي شدة الحرارة فيها في الصيف (من 40% الى 60% في الجنوب الغربي مثلا في الخليج) ، وما هي شدة البرد في الشتاء ، عرف معنى النيروز الواقع في مستهل الربيع عندما يأخذ الزمان في الاعتدال ، ويأخذ الشجر في اخراج براعيمه المخضرة المحمرة كأنها من نفائس الاحجار أو أول ما ينبثق من نهود الابـكـــار

على أن فصل الربيع بل مظاهره لا تطول في ايران طولها في غيرها كما هو الواقع في البلاد التي تعد من المناطق المعتدلة .

وايران ليست منها في شيء ، لأن أرضها سخبة شديدة القحولة ، شامخة جبالها تشغل الارض القاحلة منها أكثر من ثلثي مساحتها . ولايستغل في الواقع من اراضيها الا 18 واحد من 15 % من مجموعها(1) .

واني أترك في هذه العجالة جانبا ما كان عليه النيروز في القديم عند الفرس وما كانت عليه عوائـدهم في ذلك بعدما فتح العرب المسلمون بلادهم اذ ثبت أن بعضا من ملوك المسلمين وأمرائهم ، وحتى من خلفائهم احتفلوا بالنيروز ، ولم يروا في ذلك بأسا ، وكان ذلك مـن جملة ما أخذه العـرب الفاتحون عن الفرس ـ وكم أخذوا ! ـ رغما مما ادعاه ابو عثمان الجاحظ من كون عبد الله بن طاهر وهو من ولاة خرسان هو وحده الذي فعل ذلك ، اذ ثبت أن عليا كرم الله وجهه قبل هدية في النيروز ، وكذلك الأمر في

(1) Teron « IRAN »
Pajot.

شأن بعض بنى أمية وبني العباس كالمامون ، لان البرامكة كانوا يحتفلون به لأصالتهم فى الفارسية . وانتشرت العوائد النيروزية فى البلاد العصرية حتى أصبحت شبه رسمية فى عهد الفاطميين ، وله صلة وشبه بعيد شم النسيم الذى هو أيضا عيد للربيع كغيره من الاعياد التى اعتدنا أن نعيشها فى حوض البحر المتوسـط .

غير أننا اذا عرفنا أعيادا فى المغرب بمناسبة حلول الربيـع ، فـان النيروز باسمه ورسمه لم يصل لا للمغرب ولا للاندلس ، رغما عـن كـون التشيع جاء فى ركاب بعض الواردين على المغرب من الشرق .

ونكتفى من ذكر ما جاء عن القدماء فى النيروز ما ذكره صاحب نهاية الأرب وصاحب صبح الأعشى نقلا عن ابن المقفع من تلك العادة اللطيفة التى كانت متبعة أيام الفرس الاقدمين ، وهى قدوم رجل وسيم أرضـوه لهـذا الغرض يأتى بثياب الملك ليلة النيروز فيؤذن له فى الدخول عليه صباحا فاذا كان بالحضرة قال الملك للرجل :

ـ من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وماذا تريد ؟ وما اسمك ولاى شىء وردت ؟ ومن معك ؟

فيقول الرجـل :

ـ أنا المنصور ، واسمى المبارك ، ومن قبل الله أقبلت ، والملك السعيد أردت ، وبالهناء والسلامة وردت ، ومعى السنة الجديدة !

ثم يجلسه الملك ، وعند ذلك يدخل رجل آخر حاملا طبقا من فضة

وفيه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وارز وسبع سنابل وتسع حبات من كل واحد منها ومعها سكر ودرهم ودينار .

وفى كتاب التاج وفى كتاب الأضواء للجاحظ نفس الوصف لهذه العادة غير انه لم يعزها لابن المقفع مع قرب عهده بزمانه .

وكانوا يوقدن النيران ليلة النوروز ويرش بعضهم بعضا بالماء كما نفعل نحن فى عيدى عاشوراء والعنصرة .

أما اليوم فلا زال هذا العيد عيدهم الأكبر ، ويحتفل به جلالة الشاهنشاه والحكومة وجميع الطبقات الاجتماعية ، ويظهرون فيه من أنواع الزينة وألوان الفرح ما استطاعوا ، وتعطل من أجله المصالح الحكومية نحوا من ثلاث عشرة يوما متوالية بمرسوم حكومى ، أما المتاجر فلا يبقى مفتوحا منها الا متاجر المكسرات والحلويات والمبردات ، وما الى ذلك من انواع المقتنيات فى الاعياد والحفلات .

ويبتدئون الاحتفال به عند دخول السنة الجديدة فى يوم 21 مارس ، غير أن الساعة التى تعد فاتحة السنة تختلف كل سنة عن غيرها ، فكانت فى احدى السنوات التى كنت بها(1) فى ايران 1959 ـ حوالى منتصف الليل بزيادة خمسة عشرة دقيقة وعشرين ثانية ، فاذا كانت هذه الساعة أطلقت المدافع عدة مرات اشعارا بذلك ثم تتلى خطبة لجلالة الشاهنشاه ، وكذلك لرئيس الحكومة مرحبين بالسنة الجديدة ، ويتلو ذلك استقبال شعبى فى

---

(1) كان اذ ذاك يشغل مهمة سفير بايران (ث ـ م)

أحد القصور الملكية يحضره فى الغالب أعضاء النوادى الرياضية الذين يقومون باستعراض رياضى وبهلوانيات .

ويستقبل العيد جميع افراد الامة من الجالس على عرشها الى أبسط الرعايا ، كل فرد على حسب استطاعته أمام خوان من قماش أبيض ، وقد لبس جميع أفراد الأسرة ثيابا بيضاء . أما الخوان فيوضع عليه وفى وسطه مرآة توضع عليها أو بقربها بيضة(I) ويوضع البيض بعدد أفراد الاسرة كما توضع كسرة أو أكثر من الرقائق وهى خبز ايران المطبوخ على الاحجار ، وتوضع آنية ماء عليها ورقة شجر خضراء يانعة ، وكذلك توضع على الخوان سمكة حية فى آنية زجاجية مملوءة ماء . ثم توضع على الخوان عدة اشياء يبتدىء اسمها فى الغالب بالسين مثل :

سيب : التفاح

سيبزى : حبوب وضعت قبل العيد فى صحن وبللت بالماء فظهر نبتها.

سمسم : جلجلان

سماق : ثمر أحمر صغير يجفف ويدق ليبتل به الطعام وطعمه حامض.

سور : ثوم

سركة : نبيذ تمر أو خل .

(I) يرمز البيض الى الحياة ، أى انه نواة الحياة وقد يوجد هذا الرمز فى كثير من النقوش القديمة يحمله غير العارف على أنه مجرد زخرف كما هو الامر فى معبد بعلبك فى لبنان حيث يشاهد البيض فى كل مكان من زخارف المعبد .

ساهوم : حلواء بسكر أو عسل ولوز .

وقد يضاف الى ذلك دقيق مخلوط بسكر وزبد مثل ما يسمى عندنا « بالسفوف » أو « الزميتة » أو « سلو » فى لغة أهل فاس ، وهى بربرية ، حيث قال عنها ابو عبيد البكرى انه من طعام البربر ، ويضاف الى ذلك لبن رائب « يوكور » أو اللبن الفارسي وغير ذلك من أنواع الأطعمة كالدجاج أو الجبن والسمك ، وذلك حسب امكانيات كل أحد .

وينتظر أفراد الاسرة الوقت المحدد الذى يكون فيه الاعتدال الربيعى (ويوذن عنه باطلاق المدافع) ، وهو الزمن الذى تدخل فيه الشمس فى برج الحمل ويعتقد العامة أن فى ذلك الوقت تتحرك ورقة الشجر الموضوعة فى آنية الماء ، وعند ذلك يأخذ الجميع في قراءة هذا الدعاء : « يا محول الحول والاحوال ، ويا مقلب القلوب والافكار ، ويا مدبر الليل والنهار ، حول حالنا الى أحسن حال » . ويعانق بعضهم بعضا ويعربوا عن متمنياتهم لبعضهم بطول العمر والرفاهية والعافية .

ثم يتذوق كل أحد من الحاضرين مما هو موضوع فوق الخوان من الأطعمة والحلويات ويتطيبون بماء الورد يمسحون به وجوههم . وعندما يأكلون السمك الموجود فوق الخوان منهم (من العامة) من يحتفظ برأسه الى السنة المقبلة ، اعتقادا منهم أن فى ذلك خيرا لهم .

أما النار فانهم يشعلونها يوم الاربعاء الاخير من السنة المنصرمة فى بعض الشوارع والميادين وفى حدائق المنازل ، ومنهم من يثب عليها عدة مرات معتقدين أن ذلك من دواعى السلامة من الآفات ويقولون مخاطبين النار :

« لك صفرتي ولي احمراره » ومن لم يقلها نواها أو نوى غيرها من أنواع التطهير المعتقد فى النار منذ كانت عاملا على حماية الانسان من الظلام ، وفى تطور الصناعة الانسانية ، ويرى فى ذلك علماء التقاليد الشعبية كالدكتور حسن مقدم مدرس الفنون الجميلة فى جامعة طهران ـ ان اعتقاد التطهير فى النار هو بقية من عبادة النار التى كانت فى ديانات ايران القديمة .

وبمناسبة عيد النوروز يطعم الشاه الفقراء ويهدى للزائرين من كبراء الدولة وامرائها وحتى للاجانب هدايا أغلبها من النقود الذهبية (البهلوى) .

ومن ذلك اليوم الى اليوم الاخير من عطلة العيد التى تستمر ما يقرب من أسبوعين يتزاورون ويهنىء بعضهم بعضا ، ويخابرون بعضهم فى أيام جلوسهم للزائرين فى منازلهم لاستقبال المهنئين ، فاذا زاروهم قدموا لهم ما لذ وطاب من أنواع المشروبات والحلويات والفواكه الطرية والمجففة والمكسرات بأنواعها كالبندق والفستق ، وما الى ذلك من المقبلات .

ويغلب على المترفين منهم انهم يستقبلون السنة الجديدة خارج المدينة ، اما فى ضريح الشاه عبد العظيم(I) ، وهو بمقربة من طهران أو فى مدينة قم المقدسة ، حيث مقام السيدة فاطمة ويسمونها المعصومة ، وهى أخت الامام الرضا دفين مشهد خراسان ، وقد ماتت فى طريقها الى زيارة أخيها ودفنت حيث جاءها الاجل . ومنهم من يبعد الشقة فيقتبل السنة الجديدة فى مقام

(I) يعتقد أنه من ائمة أهل البيت من غير الائمة المعروفين .

الحسين عليه السلام بكربلاء . أما الأمنية الغالية عند كل ايرانى ، فهى أن تجده السنة الجديدة أمام تربة الامام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، مهما كلفهم ذلك من جهد وتضحية .

ويجلس العلماء فى مساكنهم اليوم الثانى واليوم الثالث من العيد ، وحتى اليوم الرابع لاستقبال الزائرين ، فيضع الواحد منهم على مقربة من مقعده آنية كبيرة عمرت بالماء المخلوط بالزعفران بعدما يقرأون عليه آيات قرآنية وأدعية مأثورة كما يضعون بالقرب منهم كذلك طبقا مليئا بنقود فضية ويقتبلون الناس على اختلاف أصنافهم كالتجار والمحترفين وغيرهم ، فاذا دخلوا عليهم وسلموا تناولوا من ذلك الماء بملعقة وشربوه تبركا وتيمنا ، وعند ذلك يناولهم العالم المزور درهما مما فى الطبق يحتفظون به تبركا واستجلابا للرزق طيلة السنة الجديدة . ويغلب على هؤلاء الزوار من المترفين والتجار بين كبير وصغير انهم عندما يغادرون منزل العالم يتركون له مبلغا هاما من المال قلما يقل عن 10.000 ريال ايرانى (1) وقد يكون اكثر ، فاذا اجتمع له فى نهاية الزيارات مبلغ كبير من المال ، قصد به سماحة المجتهد الكبير ومرجع الشيعة الاكبر ، اما مباشرة أو بواسطة من هو أكبر منه ، وذلك فى مدينة قم مدينة العلم والعلماء وحاضرة الشيعة الايرانية ، فيصرف فى وجوه البر المختلفة من اعانة السادة وهم الشرفاء من آل الحسين عليه السلام ، ويعان به الضعفاء ممن هم الى نظر العلماء ويصرف بعض تلك الاموال فى مثل هذه المناسبات وفى غيرها فى تشييد المساجد والمستشفيات

---

(1) يتراوح سعر الريال الايرانى بين 12 الى 14 ريال للدولار الواحد او ست الى سبع فرنكات وقد يزيد عن ذلك الآن نظرا لانخفاض العملة الامريكية .

وما اليها مما ليس الى نظر الحكومة اذ يشتبهون في أصل الحكومة ، فلا يبيحون بناء المساجد والمدارس الدينية منها .

ومما يجدر بالذكر هو أن العلماء هناك مؤتمنون على الاموال التى تجبى أو تجمع سواء في مناسبة الاعياد أو من نوع ما يسمونه خمس الامام الذى يدفعه كل احد كبيرا وصغيرا . ولا يسوغون لانفسهم التصرف فيها حسب رغباتهم أو شهواتهم ، بل يتبعون في ذلك ما هم متفقون عليه من صرفها في وجوه البر والاحسان ، ويعتبرون أنفسهم أمناء عليها وبذلك يكبرون في أعين الناس .

فاذا كان يوم الخميس الاخير في السنة هرعوا للمقابر لزيارة آبائهم وأمهاتهم واقاربهم الآخرين ، ولا تصطبغ هذه الزيارة بصبغة الحزن والاسى او الافراط فيهما ، بل يصحبون معهم باقات الزهور وبعض المأكولات يجعلونها فوق تربة الدفين ، وكأنهم يفهمونه أنهم لا ينسونه في غمرات الحياة الدنيا التى لا زالوا يتمتعون بها من بعد ما ذاق هو غمرات الموت ، وان كانوا يعتقدون رجعته لانهم يغادرون منازلهم يوم نهاية العيد ، أى يوم الثالث عشر من السنة الجديدة ، ابتداء من اوله فيقول بعض من لهم ولوع بتفسير كل شيء وتعليله انهم يتركون منازلهم خاوية نظيفة لان ارواح الاموات تعود اليها في ذلك اليوم ، وقد نقل عن الثعالبى أن ذلك من تعاليم زروداشت نبيهم القديم ، وذلك لايستبعد لان عوائدهم في النوروز ما تزال مصطبغة بصبغتها القديمة التى تولدت في الازمنة الغابرة ، وليس من اليسير ان تقتلعها تعاليم اخرى جديدة غير قومية ، خصوصا اذا جاءت في ركاب فتح ، فأقل ما يقتضيه رد الفعل تجاه هذا الفتح هو التشبث بالتقاليد القديمة بغية المحافظة

على تراث الاجداد وابقاء على كيان البلاد المعنوى ، وهذا هو بعض السر فى التشيع ونشأته ولله في خلقه شؤون .

عبد الكبير الفهرى الفاسى

شــعــر

ســـــــيـــا ن

للشاعر : عبد المجيد بن جلون

هــل روينا ؟ ام جف ما فى القنــانى ؟

ام هــى الكــأس حطمت ؟ سيــان

وتــلاشى الضبــاب وانقشعــت ابـــ

خــرة الوهــم والخيــال الــدانــى

آه كنا نــرى الصحـــارى رياضـــا

حفلـــت بالآجـــام والافـنــــان

والجبــال الجــرداء تـبـدو قصـــورا

بالانــاشيـــد غـــردت والاغـــانــى

والوجــود العجيــب يحفـــل بالأنـــ

س وبالحــب والــرضــى والأمـــانــى

كــان أسطــورة منمــقــة فـــا

تنــة الضـــوء غـضـــة الألـــوان

قـد كساهـا الشباب سحـرا جميلا

وحبـاهـا الصـبى رقيـق المعـانـى

فارتشفنـا المـدام فـى مسـرح الـ

كـون ارتشـاف المتيـم الـولـهـان

وانتشينا : بالكأس ، بالحب ، بالفتـ

نة ، بالعـطر ، بالصبـا ، بالغـوانـى

ورقصنـا كـأننـا مـن خيـال

فـى وجـود كـأنـه مـن جـنـان

زورق الحـب والصبـابـة يـا زو

رق ، أيـن انسيـابـك المحـبـوب ؟

نحـن نسـاب ، والنسـائـم تنـا

ب ، كـأنـا لغـامـض نستجيـب

فى ميـاه اللجيـن حيـن تـرامـت

وضيـاء البـدر العليـل صبيـب

نرشف الكأس في حفاوة ونناجي

أفق الليل ، والسكون عجيب

وقلوب تجردت ونفوس

تتهادى حتى تكاد تذوب

تلك كأس بادلتها خلجاتي

والأهازيج ... والزمان رطيب

حين غردت ، في يدي الكأس والليـ

ـل ساج ، كأنني العندليب

فاذا البدر والنجوم نشاوى

تتغنى معي الهوى وتجيب

واذا الكون مسرح خالد الأ

لحان أرتاده ، أنا والحبيب

والمروج الخضراء قد غمرتها

في ابتهاج اشعة الشمس

ضحكت بالنخيل والشجر البا

سق ، تذكي الحبور في النفس

وشربت الشعاع في الكأس شهدا

حين هام الشعاع في كأسي

وعدونا خلف الفراش ، وحلقـ

ـنا ، كأنا في عالم القدس

وهتفنا مع الطبيعة في البهـ

ـجة مثل الأطفال في عرس

وارتمينا في الماء نسبح فيه

وارتوينا بالجسم والحس

وافترشنا عشب الطبيعة والعـ

ـشب يناغي الارواح في همس

وشربنا من الشعاع دهاقا

يبعث الذكريات من أمس

ثم عدنا نزهو ونضحك في الرو

ض ونعدو في وقدة الشمس

يوم كان الشباب والأمل البا

رق لحنا مستعذب الجرس

ثم حل الخريف قبل الأوان

وجلا طيره عن الأغصان

واستحالت أشعة الشمس فى كا

سى شرابا من الدجى المدجان

قطعة من سواد ليل بهيم

عصرت شؤمها يد الشيطان

والخيال المشبوب أضحى صريعا

يتلوى فى حمأة الغربان

فتمردت ، بعد لأى ، وصممت

توارى فى عالم النسيان

ويعود الربيع والأمل المنشو

د يشدو بلحنه المفتان

ويطل الفجر المورد يختا

ل بما رق من جديد الأمانى

وتساءلت حينما أيقظ النو

ر سباتى مستغربا فى أمان :

هل روينا ؟ أم جف ما فى القنــانى ؟

أم هى الكأس حطمت ؟ ســيـــان ! -

عبد المجيد بن جلون

قصص

الابتسامة

قصة بقلم : محمد الصباغ

أغمض عينيه . وضع عليهما قطعتين من قطن . لا يعرف هل كان القطن معقما أم لا .

أقفل فمه بعدما سحب منه الاضراس الاصطناعية الذهبية .

على الوجه ابتسامة خفيفة .

لمن هذه الابتسامة ؟

ما هو مصدر هذه الفرحة التى تنم عنها هذه الابتسامة ؟

الجثة أمامه مجهزة للتكفين . لقد أتم غسلها ، كما يتم دائما غسل موتاه ، فقراء كانوا أم أغنياء .

الابتسامة ما زالت على الوجه الاصفر . انها ابتسامة نادرة . لعله كان يموت ، وهو مسرور متفائل .

انها ابتسامة تستحق أن تؤخذ لها صورة زيتية لا شمسية .

آلة التصوير لا تصلح لمثل هذه اللقطات التى تحتاج الى ريشة خارقة .

انها لقطة فنية يعوزها فنان ماهر . نادرة هى اللوحات التى تسجل مثل هـذه اللقطـة .

لم يخطر ببال « الكريكو » ، أن يخلد فى لوحاته ابتسامة ميت ، على كثرة لوحاته التى تمثل شتى انفعالات الوجوه .

من المؤمنين كان هذا الميت . مات ـ رحمه الله ـ وهو يبتسم كأنـه مقبل على فرحة . مات مطمئن البال ، مرتاح الضمير . فرائـضه كلها مؤداة ، الا فريضة الحج فانه لم يؤدها لعوزه . آخر صلاته صلاها بعينيه . كانت صلاة العشاء . لم ينس الشفع والوتر .

لو كان موتاه الذين يغسلهم على مثل تفاؤل هذا الميت المبتسم لما سئم من هذه المهنة التى ولدت فى نفسيته : التجهم ، والعبوس ، والقنوط .

مهنته تفرض عليه ، وهو فى مهمة الغسل ، الا تحين منه أية بادرة تنم عن : الفرح ، والاغتباط ، وخصوصا اذا كان يؤديها وهو فى حضرة أهـل الميـــت .

مهنته حكمت عليه أن يبدو حزينا ، مهموما ، منقبضا ، مشاركة منه فى الحداد ، حتى أصبح الحزن مسيطرا عليه .

« مسعود » سئم من هذه الحياة العابسة التى يحياها يوميا مع موتاه صباح مســـاء .

من حقه أن يبتسم ، أن يضحك ، أن يلهو ، أن يعمل لدنياه مبتسما كأنه سيخلد فيها ، كباقي الناس المبتسمين الضاكحين للحياة .

ابتسامة الميت ، أثارت في نفسه هذا الشعور برفض عالمه الحزيـــن الكئيـــب .

حتى الموتى يبتسمون . وهو حي ولا يبتسم .

« مسعود » قرر تغيير مهنته بمهنة أخرى من شأنها أن تدخل على نفسه السرور والبهجة ، وتبعد عنه الكآبة والحزن ، والانقباض .

قر عزمه على ذلك . هذا هو آخر ميت يقوم بغسله . فلتكن ابتسامتــه تفاؤلا بمهنته الجديدة المقبل عليها ، مهنة يبتسم فيــها ، ويحتــك بالنـــاس ويعاشرهم ، ويتندر معهم ، ويسامرهم .

خطر ببال « مسعود » أن يمتهن السقاية . أن يجول في الشوارع حاملا قربة ماء ، وفي يده جرس ينادى به مختلف المارين ليشربوا ، ويكتفى بما يقدمه اليه المحسنون من الشاربين ، مستأنسا في جولاته اليوميــة برنيــن جرسه ، وبالحديث مع من يسعى اليه .

أغراه احتراف هذه المهنة ، وبالخصوص ، أغرته موسيــقى الجــرس التى ستنسيه عالمه الماضي الكئيب الذى عاشه مدة طويلة .

ويتخيل نفسه مارا في مختلف الشوارع ، وفي يمناه جرسه يرن به فرحا مغتبطا . يرن به هنا وهناك ، في هذا الحى وذاك ، وهو يسقى الظامئين

وبينما هو مأخوذ بهذا الاغتباط ، اذ بفكرة جديدة تطرأ عليـــه . تغيـــر رأيـــه .

« مسعود » يفكر فى مهنة أخرى بدل السقاية . مهنة لا تتطلب مجهودا كبيرا للقيام بها . لا تتطلب أكثر من الوقوف فحسب فى الباب ، وتحية الداخلين والخارجين .

اهتدى الى هذه المهنة التى اعتبرها اكثر انسجاما معه ، خصوصا وان له أصدقاء عديدين يستطيع بعضهم التدخل لدى المسؤولين لتحقيق أمنيته

أغرته هذه المهنة أكثر من المهنة الاخرى . قر عزمه على تحقيقها .

بعد أيام أصبح « مسعود » واقفا فى باب نزل كبير فخم . أصبح من الموظفين . له مرتبه الشهرى .

مهمته تنحصر فقط فى فتح باب المنزل للوافدين عليـــه ، مـع اهـــداء الابتسامات اليهم . لكل واحد ابتسامة ، داخلا كان الى النزل ، أو خارجا منه.

هذا هو الامر الذى أعطى اليه من طرف ادارة النزل .

« مسعود » يفتح الباب . يفتحها بدون حساب . يفتحها مآت المرات . يبتسم مآت المرات فى اليوم الواحد . يبتسم وينحنى تحية للزائرين الذين يفدون على النزل من مختلف البلدان .

أحيانا يبتسم دون أن يكون هناك أى وافد .

اعتاد « مسعود » أن يبتسم ، ولو كان مهموما ، ولو كان حزينا ، ولو كان مريضا .

مهنته حكمت عليه أن يبدو دائما : فرحا ، نشيطا ، مبتسما ، احتفاء بقدوم الضيوف .

مهنته لا تعرف الحزن ، والكآبة ، والتجهم .

الاوامر صدرت بأن يبتسم ، ويفتح الباب . لا مفر من تطبيق هـــذه الاوامر ، والا فمآله الطرد .

أحيانا يصدق ابتساماته على المارين العابرين فى طريقهم الى النزل .

كم يستغرب هؤلاء من هذه الابتسامات التى لا مبرر لها ، ومع ذلك فهو يبتسم لهم . دون أن يتبين وجوههم ،كما اعتاد أن يبتسم للنزلاء الداخلين والخارجين من الباب دون ان يتبين وجوههم وملامحــهم . وقــد تكــون هذه الوجوه أحيانا عابسة غاضبة ، فلا تأبه لهذه الابتسامات ، أو تأبه لها فتثير فيها شجونا وانفعالات .

« مسعود » سئم من وجهه المبتسم أبدا نحو أناس لا علاقة لهم به ، أناس لا يبادلونه نفس الشعور .

من حقه فى الحياة أن يكون كسائر الناس ، يبتسمون حينما يكون هناك مبرر للابتسام ، ويحزنون حينما يكون هناك أيضا مبرر للحزن . أما أن يظل مبتسما من أجل الابتسام فقط ، فذلك لا يطيقه لا يتحمله .

« مسعود » يفكر فى مهنة أخرى ، يفكر حزينا وهو يبتسم ، دون أن يشعر انه حزين ويبتسم .

محمد الصباغ

قصر الحمراء

قصة اندلسية بقلم : نزار مؤيد العظم

مفتونا بما حولى من بدائع اندلسية ، يمتزج بها عطر ماض بعيد تليد بأريج حاضر مزدهر ، رحت أتأمل شآبيب المياه المنبجسة من نافورات البركة العظيمة المدرجة القائمة على نشز سندسى ، وسط حديقة شعبية من حدائق غرناطة ، وهى تتأود صاعدة هابطة ، متخذة الوانا بهيجة متغيرة ، تستمدها من أنوار مصابيح كهربائية ملونـــة ، تتبـدل بانسجام رائـع مـع ايقاعات موسيقية ، كانت تنبعث من مكبرات صوت غير مرئيـة .

وأحسست بأنامل بيبيتا المخملية تلامس يدى ، وتضغط عليها فى رفق ومودة ، فالتفت اليها وفى عينى نشوة مرح وفيض مسرة ، وعـلى شفتـى صمت عابد متبتل مبهور بآيات الجمال النابض حوله ، يشفق عليها من بنت شفة تعكر لؤلؤ غلالاتها المزدانة بألف لون ولـون ، فقالت لى وهـى تطـوح بخصلة من شعرها الفاحم ، سرحت على جبينها ، لتعيدها الى الشلال المنسدل فى جلال على الجيد والكتفين :

ـ أترغب فى أن ترى الليلة مشهدا فذا لا يمكن أن يمحى من ذهنك

أبد الدهر ؟؟

أجبت وأنا أشتاق ذلك النسيج النورانى الوردى ، تعكسه شآبيب مياه النافورات على وجه العذراء الاندلسية ، فتزيده فتنة ونضارة :

ـ وهل ثمة اجمل مما أرى الآن واسمع ؟

افتر ثغر بيبيتا عن بسمة حلوة جمعت طيبة أهل الاندلس ونبلهم ، وهزت رأسها في وداعة ، ثم جذبتني من يدى .. فتبعتها كالمأخوذ بسحر حلم جميل لا يريد أن يفيق منه ، وسمعتها تهمس :

ـ تعال ايها العربى ، لتنعم الليلة بنفحة من نفحات العظمة السالفة التى تركها اجدادك هنا قبل رحيلهم .. تعال كى أريك قصر الحمراء فى ضوء القمر .

تباطأت ، ثم تسمرت فى مكانى كحصان حرون ، فاستدارت بيبيتا الى دهشة من تمنعى .. وسألتنى فى عذوبة تدير الرأس :

ـ مالك ؟ الا تريد ؟

قلت وأنا أغالب رعشة غضب انتابتنى فهزتنى :

ـ أكره ان يكون ذلك الكوهين البغيض هناك مع لفيف من السائحين ، يحشوا ادمغتهم بلغو باطل ، وافتراءات مسمومة .. لقد كدت اسحق رأسه صباح هذا اليوم .

اطلقت حسناء غرناطة ضحكة تحكي بمرحها تراقصات المياه الملونـــة المتعالية من البركة ، وتطلعت الى من حولنا من أناس كانوا يروحون عن أنفسهم بين عرائش الحديقة الخلابة ، ثم رفعت رأسها نحو السماء ، وأشارت الى القمر البدر ، وعقبت متهاتفة :

ـ لن يستطيع نعيب ذلك الملط الحاقد ان يطمس قلامة ظفر من تلك الحقيقة الناصعة الخالدة .. انها ثابتة قوية ، تجدد للزائرين كل يوم قصة حضارة رفيعة نبيلة هي شاهد اثبات في محكمة التاريخ لمصلحة اجدادك ، يدحض كل افك وبهتان .. اترى الى البدر وهو يغمرنا بضيائه ؟ هل يصدقني أحد ، اذا صحت وسط هذا الجمع من البشر قائلة (ليس ذاك قمرا ، بل انه يوم بعين واحدة) ؟

مفحما ممتنا تبعث بيبيتا الحكيمة .. وبعد لحظات ، انطلقنا معا بسيارتي نجتاز شوارع غرناطة الفسيحة ذات واجهات المحال المضاءة والارصفة المترعة بالمتنزهين والمتسكعين ، حتى انتهينا الى ميدان رحب ، تراءت لي عند نهايته الشرقية لوحة على شكل سهم ، نقشت عليها بأحرف لاتينية عريضة كلمـة (الهامبرا) ، فعن لي أن أسأل صديقتي الاسبانية :

ـ لماذا تكتبون وتلفظون اسم القصر العربي خطأ ؟ انه الحمراء .. لا الهـامـبـــرا ..

أجابت بيبيتا محاولة اعطائي تبريرا مقنعا :

ـ لفظ الهامبرا أسهل على لساننا من كلمة الحمراء ..

اجتزنا بوابة كبيرة ، وشرعنا نصعد فى لهب ضيق ازدحمت عـــلى شفتيه الاحراج الاثيثة ، تتخللها ممرات متعرجة وتشدو على جوانبها الجداول المتراكضة ، الى أن وصلنا ساحة تضم كتـــلا كئيبة لمـباني شادهـا شارل الخامس ، قاصدا بها ـ كما بدا لى ـ أن يحط من قدر ذلك القصر العربى الفريد الذى ما زال يبدو الى اليوم فى عظمته ودقة منشآته وكأن مباني شارل الخامس قد أقحمت عليه اقحاما غير مستحب ، فبدت كثؤلولة تشوه جســدا جميــلا .

وحانت مني التفاتة سريعة الى بيبيتا ، فخيل الى كأنها تريد أن تسبر أغوارى لتتعرف ما كان يجيش بها فى تلك اللحظة ، لكننى تبالدت ، وأوقفت سيارتى ، وترجلنا منها عند ساحة الاجباب . وعبرنا بابا ساذجا لا أبهة فيه ، أوصلنا الى داخل القصر العربى . واذ وصلنا قاعة البركة قالت بيبيتا وهى تتأمل الرقائق الفضية التى كان البدر يريقها على صفحة المياه البلورية :

ـ رأيت خلال هذا النهار القصر بأكمله ، وراعك ما لاحظته فيه من صدوع وشقوق أحدثتها القرون والزلازل وأيدى الرعاع والجهلة .. لكنك لن ترى شيئا من هذا وأنت تتأمل القصر فى ضوء القمر .. كل شيء هنا يبدو تحت ضوئه الحالم نقيا رائع التكوين ، كأن أنامل صانعيه البارعة انتهت من تكوينه أمس فقط .. أنظر .. المرمر يسترد بياضــه الاصيــل ، والصفـوف الطويلة من الاعمدة تتألق فى شعاعاته، والردهات تشرق فى نور رقيق، واذا ما قدحت خيالك .. تراءت لك حوريات القصر العربيات وهن يختلن بغلالاتهن الضبابية النورانية وراء المشبكات ، يختلسن بعيونهن السود الكحيلة نظرات الى تلك المأدبات التي كانت تقام فى بهو الاسود ، وقاعة بنى سراج ، حول الاحواض المرمرية التى لاتزال تذرف بنقاطها الماسية ، او على مقربة من الاثنى

عشر سبعا الناهضة حول النافورة الكبيرة ، ترسل انهارها البلورية فى تراتيل اخاذة ، كما كانت ايام ابى عبد الله الصغير .

وجذبتنى عذراء غرناطة العجيبة من يدى ، وأردفت بحماسة فياضة :

- دع هذا كله .. وهلم نصعد برج قمارشى ، وندخل مقصورة زينة الملكة ، لترى القصر كله من عل ، وحديقة لندراخا ، ولتطل على غرناطة وما حولها من أرباض وجبال .

انحرفنا يسارا الى باب صغير مشقوق فى الجدار ودلفنا منه الى دركات متعرجة ، كان الضوء قليلا ، ولثوان معدودات ، عبرت فى خاطرى صور ملوك بنى الاحمر وملكاتهم وهم يصعدون هذه الدرجات الضيقة الى حيث شرفات البرج ، ليرقبوا الجيوش الزاحفة والمعارك الدائرة فى الربض .. وسرح بى الخيال ، فحسبتنى واحدا من اولئك الصيد الاماجد من قطان القصر ، يتبع قينة مغناجا ، واعدته فوق الاسوار ، ليختلس معها فى غفلة من عيون الرقباء سويعات هانئات ، يحلو عبرها البوح ، وتطيب النجوى .

كان نسيم تلك الليلة الصيفية الاندلسية قد بلغ غايته فى الرقة ، وحين دغدغ وجهى وأنا أطأ السطح ذى الشرفات تملك روحى سكون عبقرى ، وسرى فى كيانى نشاط هانىء وهتفت من أعماقى :

- يا الهى .. ما أروع ضياء القمر وهو يغمر الحمراء .. ان له فتنة يعجز البيان عن وصفها .

هدأت يد بيبيتا الدافئة بين اصابع يدى واستكانت فى طمانينة ،

واتكأت الى سور الجوسق ، والقيت نظرة على ما حولى .

تراءى لى تحت الجانب الشمالى من البرج وادى نهر حدر والصغير ، يتلوى فى طريقه تحت السقائف المعرشة وبين البساتين التى كانت مفاءات خلوية للعرب ، ينزلونها ليتمتعوا بجنيها وطراوتها ، ومن وراء ذلك الوادى الظليل انتشرت غرناطة بقصورها البيض وأبراج كنائسها المدببة تغط فى ضوء القمر . وتناهى لسمعى من البعيد اصوات صنج خافتة تصاعد من جماعة راقصة من حدائق الاراك ، فامتزجت بسقسقة مياه نافورة البركة فى حديقة لندراخا الهاجعة وراء اسوار القصر المهيب .

همست بيبيتا بصوت رخيم ندى :

ـ انظر الى اليمين لترى قمم جبال نيفادا الثلجيـــة ، فـخـر غرناطة وسلوتها ومهب نسيمها العليل ومنبع خصبها الابدى ونافوراتها المتدفقة .. تأملها وهى تشع كأنها سحائب من فضة ، ثم اطلق بصرك نحو قمة ذلـك التل الناهد على ما حوله من تلال .. هناك ، توقف ابو عبد الله ، بعد أن غادر غرناطة الى الابد ، واستدار ليلقى نظرة التياع على فردوسه الضائع ، وليطلق العنان لاحزان نفسه المنكودة ، ومنذ ذلك اليوم صار ذلك التل يعرف باسم (آخر زفرة للعربى) .

تفرست مليا فى ذلك التل موزع النفس ، وفجأة حرفت بصرى عنه لاحدق فى وجه بيبيتا وعينيها البراقتين ، لعلى استشف كنه مشاعرها .

اتراها شامتة ؟ اتراها مشفقة ؟ أتراها مزهوة ؟ وكأنها أدركت بحدة ذكائها سر ما أبحث عنه ، فابتدرتنى بنبرات تشوبها رنة صدق :

ـ ها هنا عاش قومك ما يقرب من ثمانية قرون ، غرباء متميزين عنا ، وشادوا حضارة رفيعة شرقية فى أرض قوطية غربية لاتزال آثارها الى اليوم تحمل ذكرى للشجاعة الجميلة والعدل والطموح الوثاب ، وتلهب قرائح الزائرين القادمين من اقاصى الارض بأحدوثة جليلة عن قوم جبابرة غزوا فسادوا وحكموا ، ثم تنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم ، واستؤصلت شافتهم.

وسحبت بيبيتا يدها من بين اصابعى ، وربتت على مرفقى ، وأردفت :

ـ مملكة اجدادك العرب فى اسبانيا ، كانت مدنية زاهرة مجيدة ، لكنها ظلت غريبة ، ولهذا لم تتأصل فى التربة التى كان لها الفضل فى تجميلها ، وخلق جناتها ، شأنها فى ذلك شأن الممالك الاخرى التى شادها الغزاة فوق ارض لم تكن لهم ، وكان حتما عليها أن تزول لتعود الارض لاصحابها .

شابت وجهى مسحة كآبة نطقت بمرارة الذكرى ، فتبسمت بيبيتا ، وجلست على حافة السور ثم أعطت وجهها لنور القمر ، تراودها رغبة ملحة فى أن تسرى عنى ، وتابعت :

ـ لقصر الحمراء أسطورة ممتعة جسدها شاعرنا الاندلسى فرنسيسكو بنيسبيسا ، أقرب الشعراء الاسبان الى قلوب العرب واكثرهم تشبعا بالروح العربية ، فى مسرحية شيقة ، دعاها قصر اللؤلؤ .

جلست بجانب بيبيتا ، وأشعلت لفافة ، والتمست منها أن تحدثنى بحبر تلك الاسطورة فقالت :

ـ الاسطورة وضعها فى الاصل شاعر عربى جليل يدعى اللمادى ، نشأ

في صقلية ونبغ في تونس في القرن الرابع عشر واكرم بنو نصر وفادته .
تقول الاسطورة ان الاحمر ، سلطان غرناطة ومؤسس مملكتها كان يحتضر وسط المرج وهو خارج على رأس قواته لقتال الثائرين ، وفيما كان يعاني سكرات الموت قدم لابنه الاكبر سيفه المحلى بالجوهر وخاتمه الذهبي وحقيبة عجيبة من الجلد تضم خططا لقصر لم يكن قد شيد مثله في العالم . ويسأل الابن اباه عن تلك الرسوم العجيبة فيروى له الاحمر انه تراءت له فجأة ذات مساء بين الاضواء الاخيرة للشمس صورة قصر خرافي ، يتألق فوق قمة الجبل ، فانطلق بجواده يعدو نحوه ، لكنه كان كلما مضى في طريقه اليه غاب القصر عن ناظريه . حتى مات القصر مع الشفق الاحمر ، وعاد السلطان الى غرناطة وقد امتلأت عيناه بالصور السحرية الجميلة ، وحين هبط الليل سمع هرجا ومرجا عند أسوار قصره ، ولمح جنده يجرون وراء انسان يندفع نحو باب القصر وهو يصيح (الرحمة الرحمة .. دعوني أصل الى السلطان ، لاقدم له قصرا ، لن يكون له في العالم نظير) فأمر السلطان رجاله بأن يسمحوا للرجل ان يتقدم اليه ، وحين مثل بين يديه قال له : (أنا أزهون يا مولاى .. حلمت بقصر يتجلى فوق التل الاحمر ويبدو في عيد دائم ، كالجنة التي وعد الله بها المتقين .. ينابيعه من المرمر ومصابيحه من الذهب .. ابهاؤه مفعمة بالعطور والاغاني ، تنسج الاماء الناعمات بينها رقصات من الحب) ، وما أن سمع الاحمر مقالة أزهون حتى تملكه الفرح وسأل صاحب الحلم: (فيم تطمع ؟ وماذا تريد ؟ لقاء خطط هذا القصر ؟ فقال أزهون : (لست أطلع يا مولاى بملك ولاجاه ولا ثروة ... كل ما أريده أن تهبني حبيبة قلبي سمية كي تكون لي خليلة ، ولتفجر ينابيع الهامي ، ولتسكب في روحي كل أمجاد الارض وروائع السماء) اذ ذاك ، اذن الاحمر لازهون بنوال سمية خليلة . وترحلا معا فجابا الارض من مغربها لمشرقها ليدرس أزهون فنون الشعوب وحضاراتها العمرانية ، وحين عاد تجلى له القصر مرة أخرى فوق التل الاحمر

مع اشعاعات شمس الاصيل ، فشرع يرسم خططه وهو يصيح (أخيرا تحقق حلمي المجنون) . لكن غريمه في حب سمية انقض عليه ، وسلبه الخطط ، وقتله ، وفر الى الجبال ، فلحقت به سمية ، مع خادم من خدم القصر ، تركته مختبئا عند سور المعقل ودخلت على الغريم فحاورته ، وحين هم بافتراسها ، امتشقت خنجرها وأغمدته في صدره وانتزعت منه خطط القصر والقت بها الى الخادم وهي تردد (خذ الخطط لابن الاحمر وقل لغرناطة كيف تمـــوت نساؤها في سبيلها) واستدارت لتجد أعوان الغريم يتحلقون بها ورماحهم مسددة الى صدرها ، فمدت ذراعيها الى السماء كمــن وفي نــذرا وصاحــت · (يا غرناطة قد انجزت كلمتي ويا أزهون قد أنقذت ذكراك) ، ومع الدم المتدفق من صدرها الذي مزقته الحراب رددت وهي تلفظ انفاسها (لم أخاف الموت ؟ حين يكون من أجل الحياة والحب والمجد) .

نزار مؤيد العظم